

جمال بن حويرب

# أيادي سبأ



جمال بن حويرب

أَيَادِي سَبَأْ

الكتاب: أيادي سبأ  
المؤلف: جمال بن حويرب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان  
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)  
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130  
[www.dar-alfarabi.com](http://www.dar-alfarabi.com)  
**e-mail:** [info@dar-alfarabi.com](mailto:info@dar-alfarabi.com)

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2016

ISBN: 978-614-432-501-8

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.

تقديم

الدكتور صلاح فضل

كنت أؤثر دائماً عدم كتابة مقدمات للأعمال الإبداعية، متعللاً بأنف ناقد يتعين عليه إبداء الرأي الصريح فيما يعرض له، مما قد يشكل مصادرة على حق القارئ في تلقيه بحرية دون توجيه مسبق، فلا أريد أن أفرض عليه منظوري، لأنني إن اكتفيت بالثناء عليه كما يتمنى المؤلفون تنازلت عن مسؤوليتي في التقويم، وإن كشفت بعض أسراره لونت رؤية القارئ البريء، ونفعتني هذه الذريعة المنطقية في تفادي التورط في ما لا أبغي من مجاملات، غير أن هناك حالات نادرة أجد فيها أنه من واجبي القيام بهذه المخاطرة، منها هذه المقدمة التي يشرفني أن أضعها لعمل صديقي الشاعر المتمكن المتجذر في تراثه الكلاسيكي بأكثر مما يطيقه منطلق الأدب الحديث، فلا بد لي أن أناوش ثقافته الباذخة وهو يحاول بإخلاص أن يبعث من رقدته نوعاً من الكتابة التي مضى عصرها، متدنّراً ببلاغة فائقة، ومستعيناً بمهارة مدهشة

منها السرد وفتنة رائعة من الشعر، تجعله ينفذ إلى جوهر الحكمة وحلاوة الصياغة في انخطافة واحدة، إنه يحيي فناً من الآداب السلطانية التي راجت في الثقافة العربية في أوج توهجها وهي تمتص رحيق الثقافات الحاضنة لها في العصر الوسيط. لكنه يحاول جذبها إلى التناغم مع الواقع الذي اكتسب نبراته الإنسانية ومهاراته التقنية، مازجاً النثر الأدبي الرفيع بالحكمة الشعرية المنبثقة من رحمه بتلقائية عجيبة.

ولأن المصطلح القديم لا يكاد يفِي بسمات هذه الكتابات العصرية فإن من حقنا أن نطلق على هذا النوع «أدب الحكمة السياسية» إذ يحاول أن يرتقي سردياً وبلاغياً إلى أفق كتابة صحفية جديدة تمتح من معين الرصانة والتخييل والتشويق بينما تفيد من نفائس الذات وتقوم بتخصيها فكرياً وثقافياً. ولما كان من الضروري تأطير هذا النوع فإن بوسعي أن أوجز السمات اللافتة له بأنه يفيد من بنيات سرية عديدة ويدمجها في سبيكة متجانسة مقطرة، لعل من أبرزها بنية الأمثلة المجازية، وبنية التداخل المتوالد في ألف ليلة وليلة، وبنية المقامات في مزج النثر بالشعر، وبنية الآداب السلطانية الكبيرة والصغيرة، فالحكاية الأصلية تبرغ من ثناياها حكايات جانبية لا تلهي الكاتب من

العودة لالتقاط الخيوط المنشورة وعقدتها في نسيج متلاحم، وبلاغة النثر يتم تقطيرها حتى تتبلور في كلمات شعرية وضيئة. ومسار السرد يتدفق حتى يصب في وقفات مشوقة تتعلق فيها الأنفاس ويرتفع فيها صوت الحث على المتابعة وتحريك فضول المتلقي، ويتم توزيع الأدوار على الأصوات والشخوص المختلفة حتى تحدث صراعاتها في المواقف الحرجة مع إضافات متوالية للجدع السردى الأصلي. ولعل أبرز ما تنجح فيه هذه الحكايات هو تمديد الخصائص النموذجية لكل شخص تتعرف فيها إلى طبعه ودوره بحيث يصبح علاقة على فئة من الناس دون أن يفقد ملامح فرديته الخاصة، مع الحفاظ الاستثنائي على رصانة اللغة وخلوصها للمستوى الفصيح الرفيع الذي تحتاج معه إلى بعض الشروح المندرجة في السياق اللغوي بلطف وسلاسة. أما البنية الفكرية لهذا النوع من السرد فهي تقوم على غلبة الحجاج المنطقي والعاطفي لاستخلاص الدلالات المركزية، وبلورة المغزى الكلي من داخل دينامية الحدث ذاته بوضوح شفيف. مع الالتزام الصارم برعاية العنصر الإنساني المتجاوز للزمان والمكان لأنه مغروس في قطرة البشر وموجه لنمو ثقافتهم المتراكمة. وقد توظف هذه

الكتابة تقنية الأحاجي والألغاز وتفك شفراتها بذكاء وفطنة كما نرى في رسالة العامل التي تفتقر إلى ثلاث نقاط، ورسالة الزوجة إلى الأخ الأصغر. لكن السمة المهيمنة على هذه الخواص أنها تحافظ على الطابع الشفاهي المحدد للسرديات القديمة بتكرار التذكير بمفاصل الحكاية وربط آخرها بأولها تشيظاً للذاكرة وتفادياً لمتاهات السرد وحرصاً على استخلاص العبرة من كل مقطع على حدة.

فإذا اقتربنا أكثر من هذا النص وجدناه في جملته يتكئ على تقنية الأمثلة الحائرة؛ إذ تقص شيئاً قابلاً لاحتمال الوقوع وتقصده به شيئاً أكبر من قبيل التمثيل الجماعي المجازي، فهي تشير إلى الحالات العصرية في شبكة علاقات السلطة ودقائق الحكم وطبائع الناس. إذ تبرز منظومة القيم الضرورية المؤسسة لشرعية السلطة والضامنة لرشدها، وما ينبغي لمن يتولاها أن يتضمن به من حب دائم للعدل وحرص على الثواب والعقاب، ومن التحلي بصفات الشجاعة والفروسية بما تقتضيه من صراحة وشفافية ونبل، ومن الجمع بين إتقان فنون الحرب والمهارة في إدارة شؤون السلم. هذه المنظومة الإيجابية تهددها أخطار سلبية ينبه إليها الكاتب بحذق ويحث على تجنبها من المواقف



المناسبة مثل تحكيم العاطفة بدلاً من العقل . وترك الشورى أو الاستماع للمستشار المغرض، أو الركون إلى الغفلة وترك الحذر اللازم، أو الاعتماد على الغرباء من دون تمحيص لنياتهم، أو غير ذلك من آفات السلطة مثل نقض المعهود أو العجلة والتسرع في الأحكام أو اللجوء إلى التآمر الذميم بدلاً من الدهاء . وهناك عدة دلالات مركزية في هذه الأمثلة: من أهمها ارتباط القوة بالأرض باعتبارها منبع الثروة حتى لتصبح كناية عن الملك ذاته، واعتبار المرأة الناضجة الحكيمة قرينة ومساوية للرجل بما تحصل من تعليم وذكاء وخبرة .

على أن هناك مشهدين على وجه التحديد أريد أن أخصهما بالذكر لصلتهما بالواقع الحي وتمثيلهما لما حدث فيه بالفعل؛ أولهما خاص بحالة محددة أحسبها من خبرات الكاتب الشخصية، وتروى على لسان الملك، يحكيها عن أحد ولاته الشغوف بالسلطة إذ وشى لديه بزميل له واتهمه بالسرقة من بيت المال، وعندما تحرى الملك عن الوقائع تبين له أنه كان يأخذ منه سرًا لينفق على كرام المحتاجين ممن لا يسألون الناس إلحافًا، فقدر نبل واليه المتهم وأبعد الواشي عن سلطته . أما الحالة الثانية فهي ذات صيغة عامة

تنطبق على الوضع السياسي الراهن في الوطن العربي، إذ تروى قصة مدينة مهجورة تسلل إليها دعاة الشر وهي ذات تجارة رائجة. يعيش أهلها في رغد ورفاهية، دخلوا في زي معلمين دراويش، وأخذوا يسقون الطلبة من سمومهم وأفكارهم الشريرة المتلفة بالدين فتمكنوا من الوصول إلى عقول الشباب وشبوا على موالاتهم، حتى جاء اليوم المعلوم فثارت ثورة الناس ومنهم بعض المغرر بهم ودخل الجميع في حروب أهلية سفكت فيها الدماء ودمّرت المدن وتفرق القوم، أيادي سبأ - ومن هنا جاء عنوان النص - فهجر المدينة أكثر أهلها من كثرة النهب والدمار «ولم نعد إلى مدينتنا إلا منذ سنوات قليلة ونحن نحاول إعادة ما كنا فيه من نعمة وغنى، ولكن هيهات أن يعود سريعاً فلا بد أن نصبر عقوداً من الزمن... لكننا بالإصرار استطعنا أن نهزم الأشرار ونخرجهم من ديارنا وإن كانوا من لحمنا ودمنا. إذ لا بد أن نبتز الجزء المريض من الجسم ليعيش الباقي»، وهذا المثل في تقديري يمثل بشكل دقيق ما حدث من جماعة الإخوان المسلمين، لا في الإمارات التي انتهت مبكراً لخطرهم فكفأها الله عاقبة شرورهم، ولكن في مصر وغيرها من البلاد العربية، وإن كانت مصر قد نجت من مغبة

عامهم الأسود وتتعافى من نتائجه اليوم. ولا يتسع المجال للتوقف أمام فلذات الشعر الرصينة التي ترصع الكتابة السردية في هذا النص الجميل، لأنني أفضل أن أمارس سلطتي النقدية لأثبت بعض الملاحظات الأساسية التي أخذها على النص مع إعجابي به، ففي تقديري هناك على الأقل أمران يفتقدهما النص ليكتمل طابعه العصري الراهن: أولهما ضرورة إلباس هذا النوع من السرد شبه التراثي حلة قشبية - لا من البلاغة فهو مثقل بها - وإنما من الوعي بمتغيرات الحياة الأساسية؛ إذ لم تعد السياسة وأمور الحكم تترك لهوى الحكام في الاستماع إلى المواعظ الأخلاقية، بل وضع التطور الحضاري ضوابط علمية وفكرية وتنظيمية تشرحها نظريات السياسة ونصوص الدساتير لأصول الديمقراطية ومشاركة المواطنين في السلطة وتداولها، وعلى كل الشعوب أن تحث خطاها بثقة طبقاً لطبيعة أبنيتها الاجتماعية والاقتصادية للوصول إلى هذا النموذج العصري الحتمي. الأمر الثاني وهو يتصل بطبيعة الأدب، ويفضي بأن بلورة الأهداف المعنوية بشكل مباشر من النصوص يضعف من تأثيرها الجمالي، وإذا أصبح الأدب يعتمد على الإيحاء وحث القراء على استخلاص المعاني بأنفسهم دون

نبرة وعظية أو إرشادية، فإن الإبداع يدمج القارئ في العوالم والتجارب والحالات ويتسلل إلى النفوس ليكيف مزاجها ورؤيتها بذكاء وفطنة. وإذا كان بعض الأدباء يرون أن القصص الخيالي يحمل من المغزى أكثر مما ينبغي وأوضح مما يتجلى في الواقع المعيش فإن القصة التي تتدثر بالحكمة وتتحدى بالمواعظ وتصدح بها تتعري من الجمال الذي تود أن تلتفح به النابع من هيكلها وتناغمها لا الموضوع على جسدها. لكن «أيادي سبأ» تخترق هذه القاعدة بجسارة وشعرية أتمنى أن ينعم بها القارئ المتذوق.

«الظلم مؤذن بخراب العمران»

ابن خلدون

«خذ حذرك وأنت تقا تل الوحوش

حتى لا تصبح واحداً منهم»

نيتشه

**في** مملكةٍ عظيمةٍ من ممالك الشرق القديمة ازدهرت مملكةٌ لم يكن لها شبيهٌ بين الأمم الأخرى، نشأ ملكها على حبِّ العدل وتربّى على مكارم الأخلاق وفاق إخوته وأبناء عمه الأمراء في الفروسية والشجاعة وكان نادراً ما يُرى يلهو مع رفقاته بل شغل نفسه بالجدّ من صباه ولهذا اختاره والده الملك ليكون خليفته لينعم شعبه من بعده بالعدل والأمن والازدهار.

كان للملك والأمراء في الماضي أرض واسعة مرتفعة عن بقية عاصمتهم محاطةً بأسوار منيعةٍ وحرّاس النخبة الذين ينتخبهم الملك نفسه وأغلبهم تربوا مع الأمراء على الشدة والخشونة وأساليب الحروب وأتقنوا آلات الحرب وهم مهرة في التخطيط والدفاع وشنّ الحروب، فكل فردٍ منهم يعادل عشرة من سواهم من جنود الجيش ولهذا هم نخبة الجيش وحرس الملك وأمان المدينة المحصّنة،

وبقيت هذه العادة زمناً طويلاً حتى عهد الملك الناصر الذي أحبَّ شعبه وأحبوه وقام فيهم بالقسط والعدل فأمر بنقل قصره ليكون بين الناس وأن يُبنى مرتفعاً قليلاً عن أعلى بيت من بيوت شعبه لكي يشعر الشعب بأنه قائدهم وهو أيضاً فردٌ منهم .

تُفتح أبواب القصر الملكي كل يوم وقت الضحى فيأتي أولاً عمّال الملك في الأقاليم وكان أكبرها في ولاية أخيه منذ زمن والده أما بقية المدن فكان ولايتها من عامة الشعب المخلصين للملك ومن عرفوا بالعلم والحكمة، ومن عادة الملك الناصر أن مجلسه مع ولايته وعمّاله يكون علناً لتعمّ الخبرة وليعرف المقصّر تقصيره وليتنبه الغافل منهم وليجازى بالإحسان المحسنون ويعاقب المسيئون وقد منع الملك الناصر أن ينفرد بأي وإلٍ بمفرده بل كان يحبُّ المصارحة والعلن حتى لا يظلم أحداً .

في يومٍ شديد البرد قدم ولاة الأقاليم إلى الملك وحضر أخو الملك الناصر وبدأ الكلام كعادته ولكنه فوجئ بأخيه يقاطعه منبهاً أو مصححاً أو مضيفاً ولم تكن تلك من عادته وقد تغيّرت وجوه من حضر من الولاية والأعيان، فإنّ

للملك حدوداً لا يُسمح لأحدٍ أن يتجاوزها ولو كان أقرب الناس إليه .

ابتسم الملك الناصر لأخيه وطلب من أحد ولاته عرض ما لديه من أعمال فعرضه وأظهر براعةً ابهرت الجميع فقام الملك عن عرشه ووضع يده على كتف الوالي يمدحه ويشني عليه ثم قال: ليت أعمال إقليم أخي مثل أعمالك وأفكارك لكانت مملكتنا اليوم لا تشبهها مملكة في الدنيا! .

نزلت هذه الكلمة على سمع أخي الملك الناصر كالصاعقة التي تصيب أعالي الجبال فتسقط الصخور، فما كان منه إلا أن طلب الاستئذان مباشرةً معللاً انصرافه بأمورٍ مهمةٍ يجب تنفيذها فأذن له وعند آخر البهو وقف ثانيةً ونظر إلى أخيه الملك الناصر بنظرةٍ فيها أسى ثم انصرف .

قال الملك الناصر لوزيره: يا وزيرٍي لقد رأيت ما فعل أخي ولم يكن لي بدٌّ من إحراجه وأنا لا أخفي عنك سرّاً، لقد كنت أشعر بالحزن الشديد على أخي ونائبي على أكبر أقاليم مملكتي، فقد وضعناه في موقف المفاضلة بينه وبين الولاة الذين لا يملكون حنكته ولا يصلون إلى بعض حكمته وحسن سياسته، وقد علمت أنّ أخي قد غضب بسبب



ذكرى الولاية أمامه وهم دونه علماً وقدرًا وإني أخشى أن يستعفيني من منصبه فينجح مستشاره الذي يعتمد عليه في كل أموره، وقد نصحته عنه فما انتصح وتراودني الشكوك بأنه يخطط لإضعافي بتخلّي أخي عني أو أن يقوي شوكته فأخشاه وتدبُّ الفتنة بيننا وقد يجمع مجلس الحكماء حوله فيعزلونني ويحل محلي وهو ما يريده مستشاره المخادع.

قال الوزير: إنّ مملكتك من أقوى الممالك، وجيرانك من الممالك الأخرى تحاول التقرب إليك وإلى بلادك، وجيوشك المظفّرة تغزو شرقاً وغرباً، ويمكنك أن تُبقي على أخيك وتجعله أكثر ولاءً لك ليقوى ملك أجدادك به وتتعاوننا على تسطير أمجاد جديدة تضاف إلى تاريخ أمجادكم القديمة، وانظر - حماك الله - إلى الملوك من حولك، لا يزالون يتغنون بأمجادهم القديمة ولم ينسوها، وتعاضدوا لزيادة قوة ملكهم بالعلم والخبرة وتضافر جميع أفراد العائلة الحاكمة.

قال الملك: إنّ الحياة تتغيّر بين عشية وضحاها وأخشى أن يكون أخي الأمير يُخفي ما لا أعلمه وإني لا أزال أتوجس خيفة من هذا المستشار الذي أهلك أمثاله ممالك

كبيرة بسبب سوء تقديرهم وكثرة تدليسه، ولا أريد أن يقع شعبي في اختلاف عظيم إذا لم أقنع أخي بالتخلص من هذا الماكر! قال الوزير: أيها الملك العادل إنني قد أفهم من كلامك أنّ قلبك يميل إلى إرضاء أخيك وعقلك يريد أن يحجمه خوفاً على الملك، وهذا أمرٌ معضل مشكل ويحتاج إلى تفكيرٍ عميقٍ منك، ويجب كذلك أن تبتعد عن عاطفتك ومشاعرك التي قد تؤدي إلى كوارث في الحكم، بل عليك أن تعتمد على فكرك القيم وعلمك المُجرب، وتنظر إلى مستقبل مملكتك وما يفيد شعبك، واسأل أهل الرأي ممن تثق بهم، أليست تذكر يا مولاي قصة صاحب الأرض الذي أوصى أولاده بعد أن قسمها بينهم؟

قال الملك: وما قصتهم؟ فإني من كثرة أعباء الحكم لست أذكرها، قال الوزير: يُحكى أنّ رجلاً ورث أرضاً واسعةً من أبيه، فأحسن زراعتها وتعهدها طوال وقته، وكلّما سمع بجارٍ يريد بيع أرضه اشتراها منه، وهكذا حتى صارت أرضاً واسعةً جداً مترامية الأطراف، وفيها ينبوع ماء يجري وتثمر له كل سنة بأفضل الثمار، فلما كبر وأحسّ بالتعب والمرض، جمع أولاده الثلاثة وقال لهم: إنني قضيت عُمرِي في هذه الأرض ولا أريدكم أن تهملوها أو

تبيعوها، وقد رأيت أن أقسمها بينكم فليختر كل واحد منكم  
قسماً منها وأنظر ما تصنعون. . قال الملك: وماذا حصل  
أيها الوزير؟ قال الوزير: لقد اختار الأكبر أفضل قسم منها  
بحكم قوته وتقدمه في السن، ولأنه يعمل مع والده ويعرف  
قيمتها، وقام الأوسط فاختر القسم الذي دون الأول،  
وأعطيا أخاهما الأصغر القسم الذي توجد فيه بئر الماء،  
واتفقوا فيما بينهم على كميات السقي، ثم ما لبث أن مات  
والدهم. .

تابع الوزير قصة صاحب الأرض وأبنائه الثلاثة، وقد بدا  
الملك مشغولاً بروايته ومنصتاً إليه فقال: أخبرني يا وزير  
ماذا حصل بعد موت والدهم؟ قال الوزير:

بعد أن انتقل والدهم العصامي إلى الرفيق الأعلى، قرر  
أبناؤه إبقاء الحال كما كان في عهده، وحلفوا بأغلظ الأيمان  
أن لا يغيروا وصية أبيهم لكي لا تضيع الأرض إذا اختلفوا  
فيما بينهم فيطمع فيهم الطامعون، وخصوصاً أن أرضهم من  
أفضل الأراضي في تلك البلاد، واتفقوا أيضاً على التعاون  
الكامل وعلى الصدق والأمانة، فمضت الأيام تجري  
مسرعة، وهم كذلك في حال طيب حتى جاء رجل غريب  
من مملكة أخرى بعيدة وهو ثري سري، فاشترى أرضاً في

جوار أرضهم فلما رأى أرض جيرانه طمع فيها، لأنّ مثلها نادر وتعدّ من جنان الأرض فبدأ بالمكر والتدبير.

قال الملك: إنّ الشرّ ليسقط على كلّ غافل، قال الوزير: هو كذلك، فقد بدأ الغريب الماكر بكيده فتقرّب إلى أكبر الإخوان لأنّه وجد فيه غفلةً وكِبْرًا وأذناً صاغيةً، وأنشد في نفسه:

المكرُ لا ينفَعُ في عاقلٍ  
كابنِ الغرابِ عاشَ في جذره  
إن كنت تبغي النُجْحَ كنْ ماكرًا  
في رَجُلٍ يفهقُ من كِبَره

جلس الغريب في ليلةٍ من ليالي الشتاء البارد مع الأخ الأكبر وسامره وحيداً ولم يكن معه أحد من إخوته، فاقتنص الفرصة وقال له: ألا ترى أخاك الصغير قد استأثر بأفضل أقسام أرضكم فأخذ الأرض التي فيها منبع المياه؟ فقال الأخ الأكبر: نحن أعطيناه هذا القسم لأنّه يعرف حساب السقي، واستأثرت أنا وأخي الأوسط بأفضل أقسام أرض والدي شجراً وثمرًا! قال الغريب: لكنّي أظنّه يغشكما في السقي

ولا يعدل، ويسقي زرعه أكثر منكما وسوف يصبح زرعه بعد سنوات أفضل بكثير من زرعكما، وقد نصحتك لأنك أهل للنصيحة ولا أستطيع أن أخفي عنك شيئاً. فاستشاط الأخ الأكبر غضباً، فلما أصبح طلب من أخيه الأوسط أن يتحقق من كلام الغريب ففعل ووجده كما قال، وقد كان من دهاء الغريب أنه استمال إليه عامل أخيه الصغير بالهدايا والمال وهو الذي يشرف على السقي، فأنقص الحساب من غير معرفة سيّده.

قال الملك: وكيف تمكّن الغريب من كيده؟ فأجابه وزيره: لقد أخذ الغضب من الأخوين مأخذه، فذهبا إلى أخيهما الصغير وضرباه ضرباً مبرحاً كاد يفارق الحياة من شدته، ثم انصرفا عنه وهو في حالة يرق لها قلب العدو، وكان يقول لهما ويصرخ ويستغيث وهما يضربانه: والله لم أفعل، ولكنهما لا يستمعان إليه فقد أعمى المكر بصيرتهما، ولما انصرفا عنه أتبعهما بنظره وهو مُلقى على الأرض لا يقدر على الحراك وأنشد:

ومن قال إنّ المرء لا يتغيّر

وإنّ صفاء الودّ لا يتكدر

وإنّ الذي بين المحبين خالد

ستغدو عليه النائبات وتبكر

جلس الغريب يراقب من بعيد ما جرى للأخ الصغير،  
فجاءه مسرعاً صارخاً يدعو بالثبور والهلاك على من فعل به  
هذا الفعل، فأخذه وجبر قلبه قبل جبر كسره وتلطّف به حتى  
عوفي مما به، وكان يوحى إليه أن يترك هذه الأرض التي  
يشارك فيها مع أخويه الظالمين، وليبيعها ويشتري أرضاً  
بعيدةً عنهما وعن شرّهما، وهما لا يعلمان. فوافق هذا  
الرأي هوى الأخ الصغير المظلوم.

وقال: أيها الغريب إنّه لم يقف معي غيرك في محنتي،  
فهل تجد لي من يشتري قسمي من هذه الأرض؟ فهشّ  
الغريب وفرح بهذه الدعوة وقال: أنا جارك وإذا عزمّت على  
البيع فسوف أعطيك مبلغاً أكثر من حقها، لأقف معك  
وتعلم صدقي معك ولتشتري أرضاً أكبر من أرضك  
وأفضل.. وهكذا تمّ البيع ولم يفق الأخوان إلا متأخراً،  
لأنّهما هجرا أخاهما وتركاه لينفرد به الغريب ويستولي على  
أرضه المهمة لهما فينبوع المياه فيها، ولما عرفا الخديعة  
ندما أشد الندم ولات حين مندم!

قال الملك: والله إنّها لفاجعة عظمي ومصيبة كبرى على

الأخوين، فأكمل أيها الوزير وماذا فعل الغريب؟ قال الوزير: بعد أن ملك شريان حياة الأرض وأصبح هو الأقوى في هذه الأرض المثمرة الكبيرة طلب من الأخوين أن يلتقيا معه، فقدموا إليه وهما يجزان أذيال الخيبة والألم وقد علما أنّهما هما الضعيفان وهو القويّ، ولا بدّ أن يتبعاه لكي يسلما على أرضهما بعد أن فرّطا جهلاً وسفهاً في أخيهما المخلص وأرضه . .



قال الملك الناصر: يا وزيرى المخلص انظر ماذا فعلتِ المشاعر والعاطفة بالإخوة أصحاب الأرض المتألفين المتعاونين، حتى تفرّقوا وذهبت ريحهم حين لم يعتمدوا على الحكمة والرأي الصحيح، وقد علمتُ الآن ماذا تعني من هذه القصة، لكنني أريدك أن تكملها حتى النهاية! قال الوزير: سمعاً وطاعةً، يا مولاي هكذا هي سنة الحياة في كلّ من لم يعتمد الحذر خليلاً له ولم يتقلّد سيف الحزم في أفعاله، فعاش سهلاً لا يدري أين يتوجّه ولا كيف يتصرّف.

لقد نجح الغريب بمكره في أن يستولي على أهم أقسام أرض الثلاثة، لأنّه عرف نقاط ضعف الأخ الأكبر فاستغلّها

أفضل استغلال حتى نشب بين الإخوة ما نشب، فوقع الخلاف والشقاق بينهم وسقط الأخ الصغير في حفرة التي حفرها له، واشترى منه قسمه وهو أهم قسم في أرضهم، فأسقط في يد الأخوين اللذين أذنا (استمعا) إلى عدوهما فصدّقه في أخيهما المخلص سفهاً وجهاً، وها هو ذا قد رحل عنهما بعيداً وتركهما تحت ذلّ الغريب الماكر.

قال الوزير: بدأ الماكر الغريب بوضع القيود والشروط على الأخوين، بل نغص عيشهما فجعل للسقي تكاليف لم تكن موجودة في وقت أخيهما، وقال لهما: إنّ الله وهب لي هذا القسم وقد اشتريته من أخيكما المسكين، وقد انتهى ما كان من عهدكم السابق وأنا اليوم أضع ما أريد من الشروط، فمن شاء أخذها ومن شاء باع أرضه لي وسأعطيه أفضل من سعرها.

قال الأخ الأكبر: أنت من أخبرنا بغش أخينا لنا في السقي - ولم يكن يعرف بعد أنّ أخاه مظلوم - بل أنت السبب في غضبنا حتى فعلنا بأخينا الصغير ما فعلنا، ولينا تركناه يغشنا ولم يرحل عتاً ويبدّل وصية والدنا الذي أقسمنا أمامه بأشدّ الأيمان أن نحافظ على أرضنا، فواحسرتاه على أخي وأرض أبي، ثم أنشد:



كيف أحيا ولي فؤادٍ عليلٍ  
وهمومي من الزمانِ ثقيله  
قل لمن غره الغريبُ بودٌ  
عن قريبٍ لسوف تشفي غليله

قال الغريب: لم أنصحكما إلا بالخير والتحري عن أمر  
أخيكما وأنتما من أساء إليه، وقد أجزلت له في ثمن أرضه  
ولا تكثرا عندي الكلام وافعلما ما أمركما به لكي نبقي جيراناً  
ولا تدفعاني لأفعل ما يسوؤكما. قال الأخ الأوسط: أيها  
الغريب يدك أنت الطولى، وسوف نفعل ما تطلب ونؤدي  
لك ما تشترط، ثم أخذ بيد أخيه الأكبر الذي كانت تتقطع  
نفسه حسرةً وندماً، وانصرفا وهما في أسوأ حالة.

قال الملك: كانوا يقولون «رب عجلةٍ أورث ريثاً» وإني  
أقول: «رب عجلةٍ أضاعت مُلكاً»، لقد كان ينبغي لهما  
التريث حتى يستمعا لأخيهما ولا يسمعا كلام الغريب،  
أكمل قصتك فلقد جعلتني أشتاق لسماع آخرها. قال  
الوزير: إن ثمن الاستعجال باهظٌ جداً وقد يؤدي إلى ضياع  
الملك كما حصل لهؤلاء، وكذلك لا ينبغي أن ننسى أن

الماكر الذي يبدأ المكر ويحوك المكائد للناس لأجل نفعه  
ويضرّ الآخرين، لا بدّ أن يسقط في شرّ أعماله وهو لا  
يدري ويتلوه الله بمن هو أمكر منه وأذكى، ثم أشد:

يا من يحبُّ بأن يحيا على الفتنِ  
أبشُرْ سيأتيك من يبليكَ بالمحنِ

لقد بدأ الغريب يتوجّس خيفةً من عامل السقي الذي  
خان سيّده واشترك معه في خديعة الإخوة، ولم يزل يفكر  
كيف يتخلّص منه ولا يتمكّن من إخبار الإخوة بما فعل إن  
طرده من عمله، فأخذ يكثر من أوامره له ليلَ نهار حتى  
ضجر العامل وبدأت البغضاء تظهر من وجهه للغريب،  
والغريب يراقبه فقد وضع عيناً عليه، وذات ليلة جاءه  
جاسوسه وأخبره بأنّ العامل يريد أن يفتك به، فأخذ جذره  
وانتظره حتى قبض عليه وهو يهّمُّ بجرمه، فأرسله إلى سجن  
تلك البلاد مقيداً وأشهد عليه الناس ليحكم عليه القاضي . .

قضت سنّة الله في خلقه أنّه لا بدّ للمخادع الحَبِّ أن  
يأتي من يخدعه وكذلك الماكر الذي يؤذي الناس بمكره  
وشرّه سوف يُمكر به ويصنع به مثلما صنع، وكم روى  
الناس من قصص هؤلاء كقصة الغريب مع الإخوة الثلاثة

الذين ابتلوا به وبدسائسه، ففرّق شملهم وأصبحوا أشتاتاً بعد أن كانوا يداً واحدةً تزرع الأرض وتسعى فيها صلاحاً، قال الوزير للملك: انظر - متّعنا الله ببقائك - إلى هذا الغريب الماكر الذي استطاع في فترة قليلة أن يمزّق شمل أسرة متماسكة ويستولي على أهم قسم من أرضهم، فأصبح مالكاً الأرض تحت سيطرته وبين يدي رحمته لا يملكان من أمرهما إلا طاعته والاستسلام له، وقد زاد غيظهما عليه وعلى أخيهما الصغير الذي يظنان أنه باعهما له، فتارةً يلومانه أشد اللوم وتارةً يلومان نفسيهما على تفريطهما فيه .

قال الملك: لقد وقعوا في حيصٍ بيصٍ وفخٍّ محكمٍ؛ فأخوهم رحل عنهم والعامل الشاهد الوحيد على الحقيقة أدخله الغريب السجن، هذا والله هو المكر العظيم! فأخبرني يا وزيرٍ ماذا صنع العامل الخائن الذي باع سيّده وولّي نعمته بعد أن أُلقي عليه القبض وهو يحاول الفتك بالغريب؟ قال الوزير: أدخل العامل السجن فلمّا رأى بعينه جزاء خيانتته ونكرانه لمعروف سيّده الذي كان يكرمه ولا يشقّ عليه ويغدق عليه من الهدايا ويجزل له في العطايا فردّ إحسانه بخيانتته من أجل غريبٍ لا عهد له ولا ذمّة، حيثنّد بكى ولسان حاله ينشد:

أبا نفسُ هذا جزاء الردي  
وحقّ الخؤونِ بأن يُسجنا  
لقد بعثتِ ندباً سما سيّداً  
بذلّ فيا ضيعتني والعنا

وهو في هذه الحالة من البكاء الشديد؛ وقف عند رأسه  
أحد الحراس وقال له: ما يبكيك ولما يحكم القاضي عليك  
بعد؟

قال: دعني أبكي على نفسي وما صنعت يميني، فذهب  
الحارس عنه برهةً ثم عاد إليه ببعض الزاد فقد رقّ له قلبه من  
كثرة بكائه ودعائه على نفسه فقال: كلّ واعلم أنّ الله يفرّج  
على المظلومين كربتهم إن كنت مظلوماً، فكان كلام  
الحارس عليه أشدّ من سجنه فصرخ قائلاً: أنا الظالم أنا  
الخائن ولكن من يُصدّقني في الغريب؟

قال الحارس: هدّئ من روعك واطمئن فلقد رق لك  
قلبي ولا أعلم السبب ولكنّي أشعر بأنّ وراءك قصة، قال  
العامل: أيها الحارس إتّي لا أعلم هل سأخرج من سجنني  
هذا أم أبقى فيه حتى آخر حياتي؟ وإتّي أريدك أن تساعدني

فتوصل هذه الرسالة إلى صاحب الأرض المجاورة لأرض سيدي الغريب .

قال: قانون السجن لا يسمح بذلك ولكنني سأساعدك بسبب تعاطفي معك وحسن ظني فيك، فأعطاه الرسالة وأخذها وأوصلها إلى الأخ الأكبر وكان معه أخوه الأوسط فلما فتحها بُهت ولم يفهم منها شيئاً لقد كانت مجرد ٣ نقاط، وهذا من تدبير العامل لكي يُخفي سرّه عن الحارس لأنّه لا يثق بأحد، فقال الأخ الأوسط لأخيه وكان ذكياً محبباً للعلم: هذا رمزٌ أخفاه العامل عن الحارس فدعني أفكر في حلّه هذه الليلة، فانصرف إلى بيته وجلس يحاول فكّ هذا اللغز الغامض .

قال الوزير : بدا على وجه الأخ الأوسط السأم وهو يدفع عن عينيه النعاس فهو لم يجد جواباً وقد ذهب جلُّ الليل، فقالت له زوجته وكانت ذات عقلٍ وأدبٍ: ما يشغل تفكيرك فأنت لم تغمض عينيك حتى هذه الساعة المتأخرة قال: لقد تعبت وأنا أفكر في لغز ٣ نقاط لا معنى لها، قالت وهي تبتسم لعلّ من أرسلها يقصد:

ثلاثة فيهنّ خيرٌ واسعُ  
البحرُ والملوكُ والمزارعُ

قال لها: لا هذا بعيد فصاحبها في السجن وأشعر أنه يريد أن يخبرنا بسرّ ما، فقالت: إذن لعلّه يعني:

فإيّاك لا تسمع كلامَ ثلاثة  
غريبٍ ومأفون الحجا ومطلّقة

قال: هو هذا يا زوجتي العزيزة لقد أصبتِ، فهرع إلى بيت أخيه مسرعاً، وقد اقترب وقت الفجر، ليخبره بما فهم من الرسالة.



قال الملك لوزيره الحكيم: لقد ألبس هذا الغريبُ الماكر الإخوة الأشقاء لباس الشقاق والبغض واستولى على أملاكهم بمكره وشره ولكنّ الله يمهل ولا يهمل وما أظنّه إلا سيُسقى من الكأس نفسها التي سقى منها هؤلاء، ألسنتُ تذكر قصة أحد وُلّاتي الذي وثقت به وقدمته على من هو أفضل منه ولم أبخل عليه وأعدت عليه من نعمتي وقربته منّي؛ بل أصبح أقرب من بقية وُلّاتي فإذ به يسيء في مملكتي ويمكر بهم.

يفرّق جماعتهم ويزرع العداوة بينهم لكي يبقى هو

المقدّم عندي المستأثر بالرضا وهذا من أغرب الأمور  
وأعجبها فإنّه كان بمقدوره بإخلاصه وصدقه لي أن يصل  
إلى مبتغاه لكنّ نفسه الشريرة لا تتركه وما زال يكيد حتى  
وقع في شرّ أعماله، فبعث يوماً رسالةً إلى أحد قادتي من  
حيث لا يعرف هويّة المرسل، فأبلغه أنّ أحد ولاة الملك  
يسرق من بيت المال فنقل الخبر بأسرع من غمضة عينٍ إليك  
يا وزيرٍي وأخبرتني بالأمر ولولا علمي بأمانة هذا الوالي  
لصدّقت ما قيل عنه، ووالله إنّ العجلة لا تأتي إلا بالشر وإنّ  
المكر، ولو كان محكماً، لا بدّ أن يحيق بصاحبه. ويا  
وزيرٍي: لقد تابعت أمر هذا الوالي الأمين الذي كدّت أّتهمه  
لولا خوف الله ثم وصيّة والدي الملك رحمه الله الذي  
حرص على أن يعلمني كل خير وكان يكثر من قوله: يا  
ولدي إنّ المُلْكُ موردٌ عذبٌ يتزاحم عليه الناس ويتنافسون،  
فإيّاك أن تحكم على خاصتك وعمالك وعمامة الناس حتى  
تقيم الحجّة وتعرف الأسباب وتتحرّى الحق وينشدني:

أمرُ الملوكِ كمثلِ السيفِ منصلتاً  
بمضي فيفصلُ بين الروح والجسدِ

فاسمغ على مهلٍ ثم استشز وأعد

واحكم بما فيه خيرُ الناسِ والبلدِ

ولهذا بعد أن ثبت لي بأنه بريء من هذه التُّهمة وعلمتُ  
أنّه كان يأخذ من بيت المال ويوزّعه على المساكين من أهل  
مملكتي الذين لا يسألون الناس إلحافاً، ويستحون من وضع  
أسمائهم في سجلّ الذين يأخذون الصدقات الخاصة، ولم  
يكن أحد يعرف بهذا الأمر غيره، وبعد تيقّني من براءته  
شرعت أبحث عن المسبّب لهذه الاتهامات التي زادت حول  
وُلّاتي، وإنّ كثرتها ليؤدّي إلى ضعف الحكم وسقوطه إن لم  
أتداركه في الوقت الصحيح، وبعد التحرّي وجدت أنّ هذه  
المصائب تعود كلها إلى هذا الوالي الماكر الذي أعطيته فوق  
ما يستحقّ ولم أكن أعلم أنّه خبيث الطويّة سيء النية، وقد  
وقع في يدي فأودعته السجن يقضي فيه مدّة من حياته حتى  
يشعر بالشر العظيم والشرخ الكبير الذي أحدثه في ملكي  
وقد صدعته بعد ذلك بفضل الله ثم بالعزم والصدق  
والاعتماد على الثقات من أمثالك، وبعدُ يا وزيرٍ أكمل  
قصتك وأخبرني ماذا صنع الأخ الأوسط مع أخيه عندما  
جاءه قبيل الفجر؟

قال الوزير: قرع الأخ الأوسط باب أخيه الأكبر بقوة



فخرج إليه مسرعاً وبدا على وجهه الذعر لأنّه لم يحصل أن أتى إليه أخوه في مثل هذه الساعة فقال: ما بالك وماذا جرى لك وليس من عادتك أن تقدم إليّ والصبح لم يتنفس بعد؟! قال الأخ الأوسط: لقد وجدتُ حل لغز عامل الغريب. قال: فما هو؟ أعلمني.

قال: إنّه يحذّرنا من الغريب وأنّه كذب علينا في غشّ أختنا الصغير لنا. قال الأخ الأكبر - والكبير ما زال يسيطر عليه - : وكيف وصل عقل هذا العامل الأحمق إلى مثل هذا المستوى من الذكاء المفرط؟! هذه أوهام فلا تأبه لها، وإن صدقت فإنّما يريد العامل أن ينتقم من سيّده الغريب الذي أدخله السجن، فإذهب يا أخي واسترح ودع عنك هذه الترهات.

رجع الأخ الأوسط وهو يحدث نفسه في طريقه إلى بيته ويقول: لعلّ ما قاله أخي هو الحقّ، فكيف نصدّق عاملاً مسجوناً وقد قُضي الأمر الآن وصرنا في رحمة هذا الغريب!، فلمّا دخل البيت وجد زوجته العاقلة الأديبة تترقب وصوله فقالت: ما بالك أتيتني بوجهٍ غير الوجه الذي خرجت به، وماذا يريد أخوك أن يفعل بعد أن عرفت ما سرّ رسالة عامل الغريب؟ فأخبرها زوجها بما قال له أخوه،

فقلت: بس فكر المتكبر الغافل، إن كنت تثق برأيي فارحل إلى أخيك الصغير وأرضه بعد ما فعلتما فيه ما فعلتما، وصله واستعن برأيه فإنّ هذا العامل عمل عنده سنوات وهو يعرفه حق المعرفة، قال لها: أفعل إن شاء الله وأعدّ عُدّة السفر.

قالت الزوجة الأدبية العاقلة لزوجها وهو يعدّ عدّته للسفر: لا تظنّ أن مهمّتك هذه سهلة بل احسب لها ألف حساب فانت مقبلٌ على مهمّةٍ صعبةٍ ورحلةٍ شاقّةٍ، ولا تنس ما فعلت أنت وأخوك المتكبر الغافل بأخيكما الصغير حتى كرهكما وكره البلاد بأسرها وباع أرضه ووصيّة والده ورحل بعيداً لكي لا يرى من أهانه وأذله من أجل فرية غريب لا تعلمان من كان وراءها ولم تتكلّفا السؤال والتحريّ عنها بل عمدتما إلى ضربه وجرحه وكسر عظمه أمام عمّاله فأسقطتما هيبتة بين الناس وحصل ما حصل، يا زوجي الحبيب وقرّة عيني: هذا ظرفٌ فيه رسالة، فإذا لم تجد سبيلاً إلى قلب أخيك ولم يقبل عذرك فأعطها له ولا تطلّع عليها.

قال الزوج الذي يحبُّ الشورى ويستمع إلى النصيحة ولا يتكبر عليها: هاتي رسالتك ولولا ثقتي بعقلك لما أخذتها منك وأسأل الله العظيم أن يكثر من أمثالك في نساء

العالمين وأن يرزقني منك ذريةً سالحةً فقد طال انتظاري لهم، فقالت: أكثر من الاستغفار والله خير الرازقين، ثم ودّعها وبدأ رحلته التي تحتاج إلى 10 أيام بلياليهنّ حتى يصل إلى أخيه، ولم يخبر أخاه الأكبر عن وجهته وأمر أهله أن يكتموا سرّه خشيةً من أن يمنعه كبراً وجهلاً.

قال الملك لوزيره: لقد زدت شوقي لمعرفة ما في هذه الرسالة فكيف هو حال زوجها الذي عليه أن يصبر كل هذه الأيام ليطلع عليها؟، ولعمري إنّها ذات عقلٍ وحكمةٍ وكم نحن بحاجةٍ إلى مثلها في هذه السنين التي اختلط حابلها بنابلها، وصارت النساء لا يباليين بالحكمة والموعظة ويتسرعن في حكمهنّ ولا تجد منهنّ من تعين زوجها على الخير إلا قليلاً!، قال الوزير: يا مولاي إنّ النساء كالرجال في الفضل وعدمه، وتعليم المرأة يقع أولاً على أمّها ثم على خبرة وذكاء زوجها بعد ذلك، ومن حُرّم الزوجة الصالحة العاقلة فقد حُرّم السعادة.

ثم تابع الوزير قصته وقال: مضى الأخ الأوسط حتى وصل إلى مدينة بين مدينته ومدينة أخيه فبحث عن بيت قريبٍ له صالح يسكن فيها فوجده قد فارق الدنيا منذ سنوات وله ذريةً سالحةً مثله، وقد تكفّل بهم زوج أمّهم

بعده وكان من أهل الله الصالحين فأنشأهم أحسن تنشئة،  
ولمّا رأى الأخ الأوسط هذا الصالح: ابتسم ضاحكاً واكتفى  
بها وبالتحية، ثم أثار أن يبيت في ضيافتهم ليلةً فجلس  
صاحب البيت معه وسامره وأخذ في الحديث فذكر ما  
حصل له ولأخيه من أمر الغريب ثم قال له الصالح يسأله:

وقعت ابتسامتك لي أوّل ما رأيتني في قلبي موقعاً غريباً  
فهل يمكنني أن أعرف سرّها؟ قال الأخ الأوسط مبتسماً:  
لقد رأيت منذ مدّة رؤيا؛ كأنّي في أرضٍ كالجنة لا أعرف  
مكانها وكان فيها رجل يزرعها وهو جادّ مخلصٌ في زراعتها  
ولم تثمر بعد، وقيل لي فيها: إذا رأيت هذا الرجل الصالح  
فاسأله أن يدعو لك بالذرية الصالحة.

قال صاحب البيت: خيراً رأيت وشرّاً كُفيت، فقال الأخ  
الأوسط: هل تعرف من هو هذا الذي رأيت؟ قال: وما  
علمي به!، قال الأخ الأوسط: هذا أنت وأنت الذي تزرع  
هذه الدنيا بصلاحك وتأخذ من الله أجر تربية أبناء قريبي  
الراحل والحمد لله أنّي وجدتك وهذا سرّ ابتسامتي فادع لي  
والله يجزي المحسنين فدعا له، ثم رحل ميمّماً وجهه شطر  
مدينة أخيه حتى وصلها في أول الضحى وسأل عن أرض  
أخيه فدلّ عليها فإذا هي أرضٌ غنّاء واسعة فيها من كل

الثمرات، ووجد أخاه يعمل كما كان يعمل في أرضه الأولى  
بجدٍّ وإخلاص، فنادى بأعلى صوته:

أيا أخي الصغير يا حَبَّ والدنا وقرّة عين أمنا أنا أخوك  
فاقبل اعتذاري واغفر زلّتي، فرفع أخوه الصغير رأسه من  
أرضه ليرى من يناديه فلمّا تبين له من يناديه: اكفهرّ وجهه  
وتكدّر وملكه الغضب وتذكّر كلّ ما مرّ عليه من الآم  
وأحزانٍ بسبب جهالة أخويه.



قال الملك الناصر لوزيره المخلص: إنّ هذا الموقف  
موقفٌ عظيمٌ وذكرى أليمة في قلب كلّ إنسانٍ مظلومٍ ظلم  
من أقرب الناس إليه وخيّبوا رجاءه، فأخبرني بما جرى  
بينهما بعد أن رأى الأخ الصغير أخاه وغضب من زيارته أشد  
الغضب؟ قال الوزير: يا مولاي إنّ ظلم الأقرباء لا يُمكن  
وصفه ولا نسيانه، لأنّه ظلمٌ مركّبٌ من الظلم والصدمة  
النفسية معاً، فقد وقع من أناسٍ لا يُمكن أن تتوّع أن يأتيك  
من جهتهم، ولهذا فهو يترك أثراً عميقاً وجرحاً غائراً تبقى  
آثاره ولو تقادم به الزمن، وكلّما تذكره المرء شعر كمثل  
السكين تقطّع أحشائه من شدته - أعاذ الله مولاي الملك

منه - وهذا هو الشعور نفسه الذي سيطر على الأخ الأصغر عندما رأى أخاه الذي ظلمه وأعان على الشر والفرقة .

لقد أدار الأخ الأصغر ظهره لأخيه وأعرض عنه ثم بدأ بالمشي في اتجاه الشمال، حيث يقع بيته وأخوه يتبعه ويناديه، ولكنّه لا يلتفت إليه، حتى وصل إلى منزله وبقي الأخ الأوسط ينتظر في ظلّ شجرة قريبة من بيت أخيه من دون أن يسمع منه كلمة وهو لا يدري ماذا يصنع وتمنّى لو أنّ الأرض تُشقّ وتبتلعه من شدّة هذا الموقف على نفسه، وهو في حالته هذه إذ جاءه ابن أخيه الذي ناهز الحلم فدعاه إلى مجلس والده وأخذ متاعه وأمر العامل أن يعتني بفرسه، وظلّ أياماً يقوم بواجبه على أحسن وجه، فقال له عمّه في إحدى الليالي: نِعْم من ربّك يا بُنَيّ فمن علّمك كلّ هذا؟ قال: يا عمّاه إنّ والدي بعد أن هجر مدينته لم يكن له من معينٍ غيري فاجتهد على تربيّتي وحرص على تعليمي حتى بلغت ما ترى، قال عمّه: والله يا بُنَيّ إنّ العلم بالتعلّم وأنت نعم الابن البارّ وإني أريد منك أن تخبرني بطريقة أصل بها إلى قلب أخي الصغير، فكم أعترض طريقه كل يوم صباح مساء وأناديه ولا يردُّ عليّ بنظرة ولا يجيب .

قال الولد: يا عمّاه إنّ أبي أمرني بخدمتك وأن لا أترك

لك حاجةٌ إلا أقضيها لك، ولكن لتعذر أبي فقد أخذ الحزن منه مأخذاً عظيماً، وإني أنصحك أن تصليّ معه الفجر وتعتذر له بعد الصلاة عسى أن يقبل منك، فهو يكون كالريح المرسلة في هذا الوقت، قال عمّه: أصبّت وأحسنت والله إني أعرفها فيه. فلما صلى أخوه الفجر جاءه على حين غفلةٍ فعانقه وهو يقول: يا أخي اغفر زلتي إنّ الله غفور رحيم، فدفعه عنه وانصرف مسرعاً، فقال: يا أخي هذه رسالة لا أعلم ما فيها من زوجتي فخذها ولا تكلمني بعدها، فأخذها ابن أخيه وانطلق بها ووضعها في يد والده فتوقف الأخ الصغير: ليقراً الرسالة فإذا به من شدة تأثره يجثم على ركبتيه وهو يبكي بشدة ويستغفر الله، فاقترب منه أخوه فلما رآه قال له: يا أخي اغفر لي لقد أنساني الغضب حقك عليّ وأياديك الفاضلة، لكنّها الحياة تفرّق بين الناس ثم أنشد ودموعه تنهمر على خديه:

وإن كانت الدنيا تفرّق بيننا

فحبّك في أصلِ الفؤادِ أصيلٌ

فقام وعانق أخاه وتصافت القلوب بعد طول الشقاق، ثم أخبره أخوه بما فعل الغريب به وبأخيه الأكبر، وذكر له

دخول عامله إلى السجن بسبب شروعه في قتل سيده، وأن العامل بعد ذلك أرسل رسالةً يحذّر منه ولكن أخاك يقول: إن فكره الضعيف لا يصل إلى هذا المستوى فلم يصدّق ما قلتُ له، فقال الأخ الصغير: وما أرسل إليكما؟ قال: أرسل رسالةً فيها ثلاث نُقط وقد فسّرتها وزوجتي بيتٍ من الحكمة فيه: فيّاك لا تسمع كلام ثلاثة، فما كان من أخيه إلا أن أكمل البيت ثم قال: هذه آياتٌ كنت كثيراً ما أرددها على سمع عاملي عندما يُشير عليّ بأمرٍ ولا ينجح، فأقول له يا مافون الحجا والفكر وأنشده:

إذا كنتَ ممّن يسمع الرأي يا فتى  
ولا تنتقي من العلم إلا محققه  
وتبحثُ عن قول الحكيم مُخصّصاً  
وتتركُ آراءَ الجهول مُعلّقة  
فيّاك لا تسمع كلام ثلاثة  
غريبٍ ومافون الحجا ومُطلّقة

فقال الأخ الأوسط: إذن حفظ عاملك هذا البيت منك! قال: نعم ويحفظ غيره، وما أظنّ عاملي إلا في مصيبةٍ كبرى ويريد أن يخبرنا بها ويخافُ من الغريب لآتي أعرف



عاملي جيداً فدعنا نتجهّز للسفر ونعود إلى مدينتنا، وسوف أرسل رسالة إلى قاضي المدينة وسوف تصله قبل وصولنا. وهكذا اتفقا وغلبا مصلحة الجميع على الشقاق وبدأ بالتفكير الصحيح.



قال الملك الناصر لوزيره المخلص : لقد كان في معاملة الأخ الصغير لأخيه الذي ظلمه عبرة للناس، فإنّي ظننته سيطرده ويهينه كما فعل به، ولكنّ أخلاقه الكريمة هي التي منعت من مجازاته بمثل ظلمه، بل قدّم القريبى، وحكّم المروءة على غضبه وحزنه، وإنّ فعله هذا يذكرني بما فعل أبي «عليه رحمة الله»، عندما غمطه إخوته حقّه وحرّموه ومكروا به وكانت وصية الملك له، ولكنّه كان أسرع تفكيراً وأشدّ بأساً منهم، فما لبث أن فصل أرضاً من مملكة أبيه بعيداً عنهم، وكون مملكته، وقوى جيشه، واستعان بأهل الصدق والحكمة والعلم، وفي الوقت نفسه كانت مملكة أعمامي تتهاوى أمام أعينهم، وتسقط شيئاً فشيئاً، وبسبب ظلمهم جاءت رعيتهم فثاروا عليهم، وما كان منهم إلا أن طلبوا النجدة من أبي الملك المظفر، فجاء بجيوشه وأنقذ مملكة آبائه، وأعاد العدل والرخاء إلى شعبه، ووحد

المملكتين، ولم يظلم إخوته عندما ظفر بهم كما ظلموه، بل عفا عنهم، ولكنه طلب منهم الابتعاد عن سياسة الشعب، ففعلوا.

قال الوزير: يا مولاي إن كان للباطل جولات يبقى منتصراً فيها، فإنّ الحقّ يحتاج إلى جولة واحدة صادقة لينتصر، وهذا التاريخ فيه كثير من القصص التي تؤكد ما أقوله وتبيّنه، وهذا هو الأخ الصغير الذي ظلم من أقرب الناس إليه، يعود لينصرهم بعد طول فراق، وقد غلب مصلحتهم العامة على الأهواء الشخصية والأضغان القلبية التي سببها مكر الغريب الذي وثقوا به جميعاً.

أذن لصلاة الفجر، وبعد الصلاة بدأ الأخ الأوسط مع أخيه في المسير إلى مدينتهما، وقد ترك ابنه الذي ناهز الحُلم ليؤدي مهامه في غيابه، وهو شاب يُعتمد عليه، لأنّه أحسن تربيته، وعلمه أحسن تعليم، فرافقهم إلى أول طريق المسافرين، فوقف أبوه معه يوصيه بوصايا جليّة، والوصيّة من أهم الأمور التي حرص عليها أسلافنا، وفيها خير كثير، لكنّ أكثر الناس يغفلون عنها، ثم ودّعا وانطلقا يسابقان الريح حتى أدركهما الظلام قرب مدينة بدت كأنّها مهجورة، لولا بعض النيران من هنا وهناك، فاستضافهم أحد سكّانها

وبالغ في إكرامهم، فسألاه عن مدينته وعن سرّ هجران أهلها لها؟ قال صاحب البيت: إنّها قصة طويلة، جرت منذ زمن بعيد، عندما كانت المدينة مزدهرةً، وتجارها رائجة، والناس في خير ورفاهية، حتى طمع فيها أعداؤها المنافسون لها، فدخلوا في زيّ معلّمين دراويش، وأخذوا يسقون الطلبة من سمومهم وأفكارهم الشريرة، والعجيب أن أهل الحكمة والرأي متّاً لم يفتنوا إليهم، بسبب دخولهم الخفي، وصبرهم الطويل الذي لا يمكن أن أصفه لكم، فهو ضرب من المستحيل، ولكنّ هؤلاء الأشرار تمكّنوا من الوصول إلى عقول الأطفال، فكبروا على أقوالهم وموالاتهم، حتى جاء اليوم المعلوم. قال الأخ الصغير: ويحكم.. كيف سمحتم لهؤلاء الظلمة أن يسيطروا على عقول أبنائكم وبناتكم وأنتم لا تشعرون؟ فأجابه أخوه الأوسط: أنسيت يا أخي، كيف سيطر علينا الغريب وفعل بنا ما يشاء، ومزّقنا كلّ ممزّق، واستولى على أملاكنا! قال صاحب البيت: هي ستّة الله يا ضيوفي الكرام، فمن يغفل لا بدّ أن يكون من الخاسرين، ونحن غفلنا كثيراً، فثارت ثورة هؤلاء المغرّرين بهم من أبنائنا ونحن لا ندري، ودخل الناس في حروب أهلية فرّقتنا أياديّ سبأ، فهجر المدينة أكثر

أهلها من كثرة النهب وسفك الدماء، ولم نعد إلى مدينتنا إلا منذ سنوات قليلة، ونحن نحاول إعادة ما كُتِّب فيه من نعمة وغنى، ولكن هيهات أن يعود سريعاً، فلا بدّ أن نصبر عقوداً من الزمن، وأحمد الله أنّه أبقى لنا ملكنا العادل الذي جمعنا مرّة أخرى وأعادنا في ظلّه، وقد أخذنا من هذه النكبة العظيمة دروساً قاسيةً، وعظات كثيرة، فلن نسمح للأغراب الأشرار بعد الذي حصل لنا أن يقضوا على مكتسباتنا مرّة أخرى. فالتفت الأخ الأوسط إلى أخيه وشعر بالفأل الحسن من كلام صاحب البيت، وقال: ونحن لن نسمح للغريب مرّة أخرى أن يفرّق بيننا، وسنهزم باطله بالحقّ، ونمكر به مكرّاً شديداً كما مكر بنا، ثم أنشد:

المكرُ ليس من الرجولة والهدى  
والماكرونَ يصيبهم مكرُ العدا  
يا صاحبَ المكرِ السقيمة نفسه  
لا تفرحنَ لسوف يأتيك الردى

## دمارُ المدينة

«المنفذون هم في النهاية مجرد أدوات  
غير واعية لرجال الفكر»  
هاينه

**قال** الملك الناصر لوزيره المخلص : يعجبني كلّ ما صنع الأخوان، فقد تركا الأضغان القديمة وفكّرا في ما يكفل لهما رجوع حقّهما من الغريب، ولو بقيا على الحالة الأولى لقُضي عليهما وعلى ما تبقي من أرضهما وإنّ التعاون على الشر ليضعفه أو يزيله، وكذلك الحقّ يحتاج إلى موقفٍ صادقٍ ليدمغ الباطل فيزهقه، فأخبرني أيّها الوزير المخلص ماذا كان من أمرهما بعد حوارهما مع صاحب البيت في تلك المدينة المدمّرة التي يُعاد بناؤها من جديد.

قال الوزير: أخذ الأخوانِ بأطراف الحديث مع صاحب البيت الكريم حتى انتصف الليل فقال لهما وهو يهيمُ بالقيام: أترككما لتستريحا الآن، لأنّ من عادتنا التي ورثناها من أجدادنا أنّنا نُحضر الضيوف إلى بلاط ملكنا العادل ليسلموا عليه وليعرف أخبارهم، وسنذهب إليه غداً في أول الصباح

فمجلسه يبدأ مبكراً كل يوم ولا يغيب عنه إلا نادراً، فقال الأخ الأوسط له: نريد العذر منك لأنه يجب أن نتابع المسير إلى مدينتنا صباح الغد، قال الأخ الصغير: بل نذهب للسلام على ملك المدينة، ألم تعلم يا أخي أنّ الضيف في حكم مضيّقه ولا يجوز لنا أن نغيّر من عادات أهل هذه المدينة الكرام، وكذلك لدينا وقت كافٍ للوصول في الموعد المناسب، قال الأخ الأوسط: ولماذا تريدنا أن نتأخّر والأمر جليلٌ وأخونا الأكبر هناك يعاني من ظلم الغريب؟ قال: اصبر إنّ الله مع الصابرين ولكلّ أمرٍ مدى.

قبل أذان الفجر استيقظا وانطلقا إلى المسجد وبعد انقضاء الصلاة جلس الإمام يحدث الناس عن آفة الفكر الضالّ الذي يفسد القلوب ويفرّق الناس ويجعلهم أحزاباً متناحرين وقد ظهر في وجوه المصلين الحزن الشديد الذي عرفه الأخوان، فلما انتهى من حديثه سلّم عليه وسألاه: ما جدوى حديثك وقد فعل الأشرار بمدينتك ما فعلوا لأنكم فتحتم لهم الأبواب ولم تراقبهم وأعتموهم على باطلهم حتى استدرجوا أبناءكم واستحوذوا عليهم فصاروا أعداء لكم؟ قال الإمام وهو يبتسم: قرّر علماء المدينة المخلصون

ألا يتركوا غربياً يحدث في مساجدهم إلا من وثقوا بعقله  
وعلمه وخبروا أخلاقه وصدقه، وقد أمرونا أن نذكر  
المصلين بما حصل لنا ونحثهم على نبذ أي فكرٍ دخيلٍ علينا  
ثم أنشد:

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا ذَكَرْتَهَا ذَكَرَتْ

وَإِنْ غَفَلَتْ فَلِلنَّسِيَانِ دَاعِيهَا

قال الوزير: رافق الأخوان مضيفهما صاحب البيت إلى  
قصر الملك الذي لا يزال البتأون المهرة يقومون بتحسينه  
وتكبيره بعد البلاء الذي حلّ به، فدخلوا القصر حتى وصلا  
إلى مكان عرش الملك العادل وسلّموا عليه وكان مجلسه  
مهيئاً فيه أعيان المدينة والعلماء وقادة جيشه وقد شعرا  
بالهيبة من هيبة المكان، وبعد أن أخذوا مقعدهما قريباً من  
العرش قال لهما الملك: مرحباً بكما في مدينتنا التي  
ضاعت منّا ولكنّا بحدّ السيف والفكر الصحيح ومجابهة  
الأعداء بطرائقهم نفسها وبالإصرار استطعنا أن نهزم الأشرار  
ونخرجهم من ديارنا وإن كانوا من لحمنا ودمنا فلا بدّ أن  
نبتز الجزء المريض من الجسم ليعيش الباقي، وهكذا فعلنا  
ولكن كلفنا هذا الأمر أرواحاً طاهرة كثيرة ودماراً كما ترونه



في أرجاء أرضنا، ولو لم نغفل عن هؤلاء الأعداء الذين دخلوا علينا باسم العلم والدين لكنّا اليوم في أحسن حالٍ وتابعنا تقدّمنا ورفاهية شعبنا.

قال الأخ الأوسط للملك: حفظ الله مولاي الملك وأدام الأمن في بلادكم، إنّ لنا أرضاً من أعجب الأراضي شجراً وثمراتٍ في مدينتنا وقد استطاع غريبٌ بمكره وكيده أن يستولي على منبع الماء فيها حتى أصابنا منه شرٌّ كبيرٌ وذلةٌ ونريد منكم نصيحتكم عسى الله أن يفرّج عتاً، قال الملك: إنّ لي أيادي على ملككم أيام غنى مملكتي وعزّها وكثرة تجارتها ولا أظنّه سيردُّ لي طلباً ولا نكماً ضيوفنا سأعينكما برجلٍ من خاصّتي داهية من دواهي هذا العصر، وهو أسرع فكراً من أيّ رجلٍ شاهدتموه في حياتكما، ثم نهض الملك من مجلسه وتحدّث مع وزيره بكلماتٍ لم يسمعهما الأخوانِ وانصرف هو وحاشيته والحضور يتابعونهم بأعينهم حتى أُغلق الباب العظيم.

قام الأخوانِ وعادا مع مضيفهما واتجهوا إلى البيت للاستعداد للسفر فقال الأخ الصغير وهم في لحظات صمت: منْ يا تُرى هذا الرجل الذي سيرسله معنا وما حاجتنا إليه؟ قال صاحب البيت: إياك لا تحتقر أحداً، فإنّ

ملكنا العادل له من العقل والحكمة ما لو وزّع على أهل  
مدينته لكفتهم وإنّي أظنّكم به ستنتصرون وربّ رجلٍ عن  
ألف رجل . .



ضاقت الأيام على الإخوة الثلاثة، بعد أن نسوا وصيّة  
والدهم وتركوا الشقاق يدخل في حياتهم، وتحكّمت  
مشاعرهم فيهم، فلم يفكّروا في مصلحتهم العامة، وتغلّب  
عليهم صاحب المكر بسهولة وهم في غفلة، لم يشعروا  
بخطره حتى حلّ بهم، والآن يحاولون التخلص منه، وقد  
تبوء كل محاولاتهم بالفشل إذا تأخروا أكثر، وهكذا تفعل  
الغفلة بأصحابها، وكلّ من ركن إلى الراحة وترك الأخذ  
بالحيطة والحذر، وكم رأينا من ممالك عظيمة تهاوت  
عروشها بسبب ركون أهلها إلى الحياة الرغيدة، وخلودهم  
إلى الطمأنينة، فلم يشعروا إلا والأعداء تحيط بهم أو تخرج  
من أراضيهم، كما صنعوا بتلك المدينة التي دمرها أعداؤها  
الحاسدون، فلبسوا لباس التقوى، ودلّسوا على أهلها، حتى  
تمكّثوا من عقول الصغار، فسقطت مملكتهم ودمّرت،  
ورجعوا الآن بعد استتباب الأمن فيها إلى بنائها من جديد،  
يقول هذا الوزير للملك، ثم أنشده:

ومن لم يُحصن بالشبابِ بلادهُ

فليسَ بناجٍ إن أحاط به الردى

بعد ساعات من وصول صاحب البيت وضيفيه إلى المنزل، شرعا في الاستعداد للرحلة إلى مدينتهما، وبينما هما كذلك، إذ أتى مضيفهما ومعه رجل متوسط القامة، تظهر على وجهه علامات الحكمة والعلم، ولكنه كان في كامل أهبته، كأنه سيدخل معركة فسلم عليهما وقال: أمرني مولاي ملكنا العادل بمرافقتكما إلى مدينتكما، وقد أخبرني بقصتكما، وإني وعدته بالإخلاص لكما حتى تنفرج الغمة وتتخلصا من الغريب، قال الأخ الأوسط: مرحباً بك، وسمعاً وطاعة لأمر مولانا الملك العادل، وسنبداً المسير غداً بعد صلاة الفجر.

وفي المساء، جلسوا جميعاً يتسامرون في تلك الليلة المقمرة، وكان الرجل يتفنن في أنواع الكلام وينشد الأشعار ويروي أخبار الحروب التي نشبت في المدينة، وكيف استطاع الملك العادل أن يتغلب على الأشرار من الممالك التي تجاورهم، الذين حسدوا مملكته لما رأوا الخير والنعمة التي كانت تعيش فيها، وكان أهلها في غفلة عما يُخططه

أعدائهم، فأرادوا تدميرها ليخلو الجو لهم، وليعود طريق التجارة إليهم، ثم لا يقدر أحد على منافستهم بعد ذلك، ولكّنه بقفزة من قفزات الدهر استطاع أن يوحد شعبه، ويتخلص من كل الخائنين، وكنت أنا أحد جنوده المخلصين آنذاك، حتى تحقق النصر، وبدّل الله حالنا من العسر إلى اليسر ثانية، ولكننا كما ترون نحتاج إلى عقود من الزمن حتى نعود إلى الحالة التي كنّا عليها من قبل، وقاتل الله الغفلة، قاتل الله الغفلة، وحسن الظنّ في الغرباء، فلم نجن منها إلا الخراب والدمار.

قال الأخ الصغير: أخبرنا، وأنت خضت غمار كل هذه المعارك، عن أشدّ موقف رأيته خلالها؟ قال الرجل: المواقف كثيرة، وتهمل لها العيون دماً لا دمعاً، ولكنّ أشدّها ما وقع لي عندما وجدتُ أنّ رأس الأشرار الذين تربوا على بغضنا ومنابدتنا هو رجل من عائلة الملك العادل نفسه ومن خاصته، وهو لا يعلم به، ولم أجد بداً من إخبار الملك، فكانت صدمته كبيرة، حتى إنّه اعتزل الناس أياماً، وقال لي: هذا الذي كنت أظنّه سيكون سنداً لنا في معركتنا مع الأعداء، نكتشف أنّه يرأسهم، إنّ هذا لهو البلاء العظيم!!، فمن يأتيني به حياً أو ميتاً، قلت له: أنا آتيك به

بشرط واحد، قال الملك العادل: وما شرطك؟ قال الرجل: إن ظفرتُ به حيّاً، أريد منك أن تتركه رهينةً عندي قبل أن تحكم عليه، قال الملك: لك ما شرطت، ولا تتأخر، فهو أقدر على ضررنا من أي شخص آخر، ثم أشد ممثلاً، وكان الملك من رواة الشعر:

كيف السبيلُ إلى النجاةِ وإن لي  
رجلاً تكادُ من الهشاشةِ تُكسرُ  
كلُّ المصائبِ قد خبرتُ حلولها  
إلا القريب إذا يخونك تخسرُ

قال الملك لوزيره: الناس لا يعرفون قيمة ما لديهم من الأشياء الثمينة إلا بعد أن تزول عنهم أو تضيع فيشعروا بقيمتها حينئذٍ، وتتقطع أنفسهم حسرةً على ما فرطوا فيها، وهي طبيعةٌ بشرية تقع لكل فردٍ منّا ولكنّ معظم هذه الأشياء الضائعة يمكن نسيانها إلا ما كان متعلقاً بالملك فإنّ ضياعه قاصمة ظهر الشعوب ومفرّق شملهم ومُعيدهم إلى أولى درجات سُلم الحضارة والأمن والنعمة ولن يستطيعوا العودة إلى عزّهم الذي تهاونوا في حمايته والدفاع عنه إلا بمرور وقتٍ طويلٍ وقد لا ينجحون، وأكبر شاهدٍ

على ما أقول هذه الممالك التي رأيناها تسقط وتتغير بأعيننا  
أو سمعنا عنها من أجدادنا، كلها ضاعت بسبب خيانة  
الأقرباء أو غفلة العقلاء، ولولا الله ثم عزيمة والدي الملك  
المظفر لضاعت مملكتنا أيضاً بسبب جهل أعمامي  
وانشغالهم بما لا ينفعهم. قال الوزير: استمرَّ الرجل يروي  
حكايته على الأخوين في تلك الليلة المقمرة فقال: عندما  
أخذت أمان الملك لقريبه الخائن إن ظفرت به، جمعت  
أكفاً ثلاثين رجلاً؛ عشرة من أفضل رمانا وعشرة من أفضل  
المبارزين بالسيوف وعشرة من العدائين الذين لا تسبقهم  
الخيال، قال الأخ الصغير: وما كنت تقصد بهذا؟ قال  
الرجل: اصبر فسوف أخبركما، لقد بلغني أنّ قريب الملك  
الخائن لديه حرس من الأعداء يرافقونه أينما ذهب، وهم لا  
يزيدون على خمسين رجلاً وقد دبّرت خطة محكمة لصيده  
والإتيان به حياً، قال صاحب البيت: وماذا فعلت؟ قال  
الرجل: علمت أنّه يحبّ السباحة قرب ماء يعلوه جبل  
صغير ويحف به الشجر من أطرافه فجمعت رجالي تلك  
الظهيرة وجعلت الرماة فوق الجبل فلا يراهم أحد وجعلت  
العدائين يثيرون حراسه فتبعوهم في جهات مختلفة ولم  
يدركوهم من سرعتهم فقابلهم أهل السيوف فقتلوهم ومن

تبقى منهم اختطفت أرواحهم سهام رماتنا، ثم هددناه إن لم يستسلم ستصيبه السهام فاستسلم وألقى سلاحه .

أخذته مقيداً إلى أحد الكهوف المجاورة لأنّ الأعداء سيبحثون عنه لا محالة، فلما وصل أطلقته وأعطيته ماءً ليشرّب فلما هدأت نفسه قلت له: أجبني وإن لم تفعل سأقصمك نصفين بسيفي هذا، كيف تخون ملكنا العادل وأنت من عائلته وأقرب الناس له؟! قال: لم أخنه بإرادتي بل هو من دفعني إلى ذلك .

قال الرجل: قلت لك أجبني ولا تدلس . قال الخائن:  
نعم هو من دفعني لخيانته فقد تركني للأغراب يعلمونني ويغذونني من أفكارهم ولما كبرت أهملني فأخذني هؤلاء إلى ديارهم حتى صرت واحداً منهم ولم أكن أعلم بما يريدون مني ووعدوني بأنني سأفود البلاد وأغير من حال الفقراء الذين فيها، وسأفوز بالجنة بالتيسير على المعسرين وتطبيق العدالة التي ليست في مملكتنا، ثم لما بلغت مبلغ المسؤولية لم يعطني ملكك الذي تسميه عادلاً أيّ مسؤولية أقوم بها بل أعداؤه هم من زرعوا وسقوا والآن يحصدون ولائي لهم بل جعلوني قائداً على الثورة التي ستنتصر عليكم

وعلى ملكك، ولهذا لا تقل إنني خائن بل أنا ثمرة أعدائه  
الطيبة ورمح مسموم في قلبه الظالم.

قال الرجل، فقلت له: أنسيت كل أفضال ملكنا العادل  
عليك؟ أنسيت أنّ زواله يعني زوالك؟ كيف تضع يدك في  
يد أعداء بلادك التي هي مصدر الخير لنا كلّنا ويأتيها الناس  
من كل مكان ليجدوا الرزق الحلال فيها، ومملكتنا تعين  
الممالك الأخرى ولا تضرّ أحداً، كيف تنسى أنّ الملك  
العادل هو لحمك ودمك وأنّه وإن أهملك فليس يعني أنه  
يغضبك وإن لم يعطك مسؤولية فهذا لا يعني أنه يحتقرك بل  
آثر من هو أكفأ منك. أأست ترى هذا النعيم والخير والأمن  
الذي أنت فيه أليس هذا من عطاياه ومن حكمه العظيم لرفعة  
مملكتنا! إن لم تذكر هذا كله ألم تذكر أنّ الأعداء إذا ملكوا  
هذه الدار فسيجثون كل عائلتك الحاكمة ويجعلون أعزة  
أهلها أذلة؟!

قال الخائن وقد ظهرت عليه علامات الحزن الشديد  
والذلة: والله إنّي أعلم هذا وقد شعرت به ولكنّي لا أستطيع  
العودة فتربية الصبا والقسم الذي أقسمته لهم يمنعاني منها.  
قال الرجل: فقلت له: بل ستعود وأعدك بأمان الملك



العادل إن تعاونت معنا وأعتتنا على حربنا ضد عصابات الأعداء، فلبث الخائن أياما يفكر ويقلب الأمر ويجادلني في كل مسألة زرعتها الأعداء في قلبه حتى زالت عنه الغشاوة بفضل الله واقتنع بكلامي الذي أيدته بالشواهد العلمية والفكرية ثم أحضرته إلى قريبه ملكنا العادل فعفا عنه ودلّه على كثير من أسرار العدو حتى تمكّنّا من دحرهم وأخرجناهم من أرضنا يجزّون ذيول الخيبة، وإنّ بعد العسر يسرا.



الزمان يدور ولا يتوقف عن الدوران فيستقبله صاحب الحزم والعزم فينال ما يريد منه بإذن الله ويمرّ على المشغول في لهوه ومتعته والغافل عن كل ما ينفعه في أمر دنياه ودينه فيزلزل الأرض من تحت أقدامه زلزلة خفيفة لينتبه ويعود إلى أصله وطبيعته وليحذر من مكر الله وبعد ذلك ينصرف عنه، ثم يمرّ عليه مرة أخرى بعد فترة ليست بالبعيدة فإذا وجده في حالته الأولى نفسها ولم يأخذ حياته بالحزم وأعدّ العدة أخذه معه وقضى عليه وانتهى الأمر، وهذه حال الممالك وملوكها في الماضي والحاضر لأنّ الوقت ليس كالسيف كما يقولون بل هو أحدٌ من السيف فتكأ وخضماً، يقول هذا

الوزير المخلص لملكه الحكيم ثم أشده أبياتاً تذكر فيها  
الظالمين وتمنى لو أنهم عدلوا فبقوا:

ويا أيها الطّاعي أنتَ مخلدٌ  
فتفرح بالطغيانِ أم ليسَ منْ خلدِ  
فإن كنتَ لا تدري فهذي قبورهم  
ملوكُ الوري صاروا إلى ظلمِ اللحدِ  
وهذي عروشٌ قد تهاوت عنِ العلا  
فمن هالكٍ مُردى ومن هاربٍ فردِ  
ولو عدلوا كانوا شموسا لأهلهم  
ولو سمعوا قولَ النصيح منِ الودِّ

قال الملك: الحمد لله الذي رزقني وزيراً عالماً محتكاً  
ووفياً مثلك وإنّ الدول لا تقوم وتزدهر وتبقى إلا بوجود  
أمثالكم حول الملوك كمثل هذا الرجل الذي تحدّثني عنه  
فقد كان نعم المعين للملك العادل، فأكمل قصتك وماذا  
حصل للثلاثة بعد ذلك؟

قال الوزير: انطلق الرجل مع الأخوين وكانوا في  
رحلتهم أحذر من ولد الغراب وأظهر الرجل من مهارات

الصيد والرمي ومعرفة الأرض شيئاً نادراً حتى أنه يشمّ التراب فيعرف اسم المنطقة وقرب الماء وبعده عنهم، فنال إعجاب الأخوين وذات يوم نفذ الماء وهم في طريقهم فخشوا على أنفسهم ففارقهم الرجل ساعاتٍ ثم عاد بالماء، فقالوا له وهم في غاية التعجب: كيف وجدت الماء والماء نبعث عنه يوماً ونصف اليوم؟! قال: هذا مما تعلمته من بدو الصحراء فهناك شجرة تحفظ الماء في جذورها وقد وجدتها فاحمدوا الله على السلامة وكل علم أتعلمه يفيدني ولا أحقر علماً أبداً.

لما رأى الرجل والأخوان مشارف مدينتهما قال لهما: أنتم أعرف بمدينتكما والأمر الآن شوري، قال الأخ الأوسط: لقد أدركنا الليل وأبواب المدينة قد أقفلت فدعونا نبيت هنا حتى الصباح ثم ندخلها آمنين، فوافقاه على ذلك وجلسوا بعد العشاء وراح الأخوان يذكران للرجل تاريخ مدينتهما وقصة والدهما وكيف استطاع أن يمتلك أجمل الأراضي في هذه المدينة من عزمه وحزمه وكيف قسّمها بينهم ثم ذكرا له ملكهما المنصور الذي لا يُظلم أحد في مملكته وهو يعلم وعندما يكتشف الظلم يزيله بنفسه ويذيق الظالمين أشد العذاب حتى يكونوا عبرةً للآخرين.

وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم فارسٌ في كامل سلاحه فأخذ الرجل كنانته بأسرع من لمح البصر وتناول سهماً منها وسدده جهة الفارس المقبل عليهم ثم نادى إذا اقتربت أكثر فلا تلومنّ إلا نفسك، قال الفارس: لا تخف أنا رسول قاضي المدينة فهل بينكم الأخ الصغير ابن صاحب الأرض؟، فأنزل الرجل قوسه.

وقال: أقبل هذا هو الأخ الأصغر، قال الفارس: أنا أنتظركم منذ ثلاثة أيام وكلما أقبل ركب سألتهم عنكم والحمد لله آتي وجدتكم، قال الأخ الأصغر: كيف حال قاضي المدينة الصالح؟ قال الفارس: لقد توفي وخلفه قاضٍ آخر من مدينةٍ مجاورة، وهو من استلم رسالتك وأمرني أن أستقبلكم عند باب المدينة. قال الأخ الأصغر: والله إن وفاة هذا القاضي الصالح لمصيبة كبرى فإنّي لم أر مثله في تحري الحق وكنت أحب الجلوس معه والسماع إلى علمه لقد كان نعم القاضي رحمه الله، قال الفارس وعيناه تلمعان مثل البرق على صفحة الماء: هذا القاضي لا يقلُّ عنه عدلاً وصلاً ثم ابتسم..

قال الملك لوزيره في: كل علم يتعلّمه الإنسان وكل

خبرة يحصل عليها لا بد أن يرتفع درجة أعلى من درجته السابقة ومن توقف عن تحصيل العلم واكتساب الخبرات فقد توقف عمره عند تلك المنزلة التي توقف عندها تحصيله، ويعجبني في الرجل حذره وفهمه وكثرة خبراته فهو العبقريُّ واللودعيُّ الذي لا توقفه عقبة كأداء ولا يعجز عن شيءٍ في مقدور البشر أن يقوموا به، وهو رجل كل المراحل يعرف متى يبدأ وأين ينتهي، ثم قال بعد لحظات من التفكير: ولكن أخبرني أيها الوزير كيف وثق هذا الرجل الحذر والإخوان بالفارس المجهول وهم لا يعرفون صدقه من كذبه ألم يكن من الحزم أن يتحققوا منه؟

قال الوزير: يا مولاي لم يكن أمر الفارس غريباً على الأخوين لأنهما أرسلتا رسالةً إلى القاضي قبل خروجهما من المدينة وعندما أخبرهما بأمر الرسالة اطمأن الأخ الأصغر وصدّقه أخوه وتركوا الحذر المطلوب، ولكنَّ الرجل بطبيعته المحاربة توجّس منه خيفةً لأنّه لم يسلم عليهما أول وصوله إليهما، ولم يضع يده في الطعام الذي قرّبوه له، وكذلك لماذا جلس ينتظرهم ثلاثة أيام، وما سر هذا الاهتمام الكبير بهذه القضية من قاضي المدينة وهو غريب عن المدينة بأسرها، ولم يُعيّنه الملك إلا منذ أسابيع معدودة بعد وفاة

القاضي الصالح؟!، كل هذه الأفكار باتت تجول في رأس الرجل فلم يغمض له جفن حتى أصبحوا.

لما صلّوا الفجر قال الأخ الأوسط: أنا سأذهب إلى أخي الأكبر أبلغه بأمرنا ثم أذهب إلى بيتي وأمرّ على أرضي لأنظر ماذا فعل العمّال في غيابي، فقال الأخ الأصغر: أنا والفارس سنذهب إلى دار القاضي لنضع حداً لمكر هذا الغريب وأعرف سرّ عاملي السابق، أما الرجل فقال: اذهبوا على بركة الله وأنا سأتجوّل في مدينتكم لأنّي لم أزرها من قبل ولقاؤنا مساءً في بيت الأخ الأوسط ثم نفرّقوا وكلّ انطلق إلى جهته.

بقي الرجل في مكانه مدةً من الوقت حيث أخذ الشك حيزاً كبيراً من تفكيره فقرّر أن يتّجه جهة قصر الملك المنصور ملك هذه المدينة فاستأذن بالدخول عليه فأذن له فدخل وحيّاه بتحية الإسلام وأثنى عليه ثم طلب منه أن يجلس قريباً من الملك فجلس فقال له الملك المنصور: كيف حال الملك العادل وكيف مدينتكم التي عصفت بها الأفكار والأهواء فدمّرتها؟

قال الرجل: مدينتنا في أحسن حال ونحن نعيد بناءها

بقوّةٍ وستعود أفضل مما كانت عليه، قال الملك: وماذا لديك قال هذه رسالة من الملك العادل إليك، فسلمها له وبدأ الملك المنصور بقراءتها فلما انتهى قال للرجل: وأين هم أصحاب الأرض؟ قال الرجل: ذهب كلٌّ في طريقٍ، قال الملك المنصور لوزيره: ليحضروا جميعاً بعد ثلاثة أيام والغريب معهم.

وصل الأخ الصغير مع الفارس إلى قاضي المدينة فلما دخل للسلام عليه فوجئ بوجود الغريب عنده وهو يضحك معه بصوتٍ مرتفع، فلما رآهما وقف ولم يملك أن يحرك قدمه من التعجّب كيف يجلس القاضي مع الغريب في دار القضاء وكآته من أصدقائه؟ وأين هيبة القضاء التي كانت موجودة أيام القاضي الصالح رحمه الله؟ يسأل الأخ الصغير في نفسه هذه الأسئلة وهو في أشد الغضب والحزن، فما كان من قاضي المدينة إلا أن قام مسرعاً ورحّب به، وفعل الغريب مثله وقال له: مرحباً بك يا صديقي القديم، وإن كنتُ عاتباً عليك في اتهامي بتشويه سمعتك عند أخويك بعد رحيلك عن المدينة وأنا لا أفعل هذا، ومن أخبرك عني فقد كذب عليك وهذا القاضي الجديد يعرفني جيداً فنحن من مدينة واحدة! .

## لقاءُ الغرباء

«ويل لأمة لا ينبت فيها رأسٌ  
إلا وهو مشدود بناصيته إلى أذيال الغريب»  
فليكس فارس



**قال** الملك الحكيم لوزيره المخلص : لم يزل الحذر من صفات أهل الرأي وأصحاب الخبرة الطويلة في الحياة، وكم علّمتنا التجارب أن نشهر سيفه في كلّ حين، ولا نركن إلى الراحة واللذات، حتى لا يأتينا العدو في غفلتنا من حيث لا ندري، بل نتوكّل على الله ونثبّت دعائم ملكنا بالعدل والإحسان، وأخذ الشورى من العلماء الصالحين وأولي الألباب الصادقين الناصحين، فمن اكتفى بعلمه ولم يستشر، هلك، ومن ترك نصيحة العقلاء تضعع ملكه وضعف، حتى يأتي أمر الله عليه فينتقل سلطانه إلى ذاكرة التاريخ، وكذلك حال الناس في حياتهم ومعاشهم، إذا لم يحذروا ويستشيروا فإنّهم معرضون للمحن والمصائب لا محالة، قال الوزير: يا مولاي إنّ أولي العزم من الناس لا يغمدون سيف الحذر، ولا يكسرون قلم الشورى، فمن غفل سلب، ومن لم يستشر عُطب، والأمر سهل لمن أخذه

عادةً له، ولا يصحُّ لنا أن نخونَ أحداً قبل ثبوت التهمة عليه،  
ولا يصلح أيضاً أن نطمعهم فينا بغفلتنا وتكبرنا عن مواجهة  
الواقع، ثم نلقي الذنب كله على هؤلاء الطامعين، بل الذنبُ  
ذنبنا أولاً وأخيراً، واللوم علينا، فقد تركناهم يطمعون فينا،  
ولم نفعل شيئاً حتى كبرت جماعتهم، وقويت شوكتهم،  
وتعاونوا مع الشياطين لإدراك غايتهم، ونحن ننظر إليهم ولا  
نصدّهم من أول يوم.

قال الملك الحكيم: كلُّ صاحب هوى يبحث عن  
صاحبه في الهوى نفسه، ومن خان أولاً يخن ثانية، ومن  
صدّق الغرباء في أهله وجعلهم بينه وبين شعبه، فقد ترك  
الحذر وأخذ الرأي من أهل المطامع، وليس من أصحاب  
الإخلاص له، ثم أنشد:

لا تسمعنَ مقالةً من جاهلٍ  
واحذر وشاور زُمرةَ الحُكَماءِ  
وابعد عنِ الأغرَابِ لا تسمعْ لهمْ  
فالشرُّ مرجعُهُ إلى الغُرباءِ  
إنَّ القريبَ يحفُّ حولك قلبه  
أما الغريبُ فقربه كالداءِ

ثم قال الملك لوزيره: أخبرني بما صنع الأخ الأصغر عندما رأى غريمه الغريب مع قاضي المدينة الجديد القادم من مدينته نفسها؟ قال الوزير: كانت مفاجأة كبرى له، ولم يحسب لها حساباً، ومما زاد الأمر غموضاً أنّه علم وهو في دار القضاء، بأنّ هذا الفارس أيضاً قدم مع القاضي، ويعمل عنده بأمر الملك المنصور، فأسقط في يد الأخ الأصغر، ولم يدر ما يصنع، ولكن نفعه حذره السابق، عندما أرسل الرسالة إلى أستاذه القاضي الراحل، فقد كتبها بحبرٍ خفيّ لا يُقرأ ولا يعرف كيف يظهره إلا أستاذه القاضي الراحل، الذي علّمه الطريقة، وقد كتب عليها أسطراً قليلةً، تحسباً أن تقع في يد أعدائه، وقد كتب فيها يشكو الغريب ويذكر إساءته إليه.

قال الأخ الأصغر مدافعاً عن نفسه: أيها القاضي الجديد، إنّي لم أعرف هذا الغريب إلا أيام محنتي مع أخويّ، وقد وقف معي واشترى منّي أرضي، وزاد لي في ثمنها، ولكنتي سمعت بالإشاعات وأنا في الغربة تقول إنّ الغريب يشوّه سمعتي عند أخويّ، ويزعم أنّي بعته الأرض لأنتقم منهما على ما فعلا بي، وهذا ظلم منه.

قال الغريب: وكيف صدّقتها ولم تثبّت منها؟ ألم تعلم

أنّ الإشاعة تبني على الكذب؟! قال القاضي: لقد عجلت  
أيها الشاكي وظلمت من أعانك ووقف معك، وإني خشيةً  
مّني على سمعته، جعلت الفارس ينتظركم كلّ هذه الأيام،  
والآن، إما أن تترك دعواك أو أثبت افتراءك عليه وأفضي  
بجلدك عشر جلدات، تعزيراً على الافتراء على المحسنين.

قال الأخ الأصغر وهو في حالةٍ من الهلع: بل أترك  
شكواي وأطلب من الغريب العفو والصفح عني، ومنك  
ومن جميع من أسأت إليهم. قال القاضي وقد تهللت  
أسارير وجهه فرحاً: هذا هو العقل، هيّا انصرف، ولا تعد  
إلى ذنبك ثانية.

## صائدُ الأفاعي

«ليس أخطر على دولة ما  
من الخلط بين المكر والحكمة»  
بيكون

**توقيع** الأمر قبل حدوثه لا يمكن أن يكون صفةً لرجلٍ من عامة الناس لم يجرب الحياة ولم تعركه الأحداث عرك الرحي بثفالها، حتى شدّبت التجارب ونقّحت أفكاره كثرة تأملاته للأشياء، فأصبح ينظر إلى الصور أمامه بشكلٍ يختلف عن نظر الآخرين، فهو عميقٌ جداً في استشرافه للمستقبل، وهو الألميُّ الداهي الذي إن ظنّ لك الأمر الذي لم يقع فإنّه لا بدّ أن يقع كما ظنّ.

ولست أرى هذا الرجل الذي بعثه الملك العادل والأخ الأصغر إلا من هذا النوع، مع اختلاف منزلتهما، فالرجل ارتاب في الفارس المجهول فلم ينم ليلته، والأخ الأصغر استخدم حبراً خفياً لكي لا يطلع على سرّ رسالته أحد، يقول هذا الوزير للملك الحكيم.

قال الملك: لا أوافقك الرأي في أمر الأخ الأصغر أيّها الوزير، وليس هو بالألمي ولا الذكيّ لأنّه هو سبب كل

مصائب الأخوين، بعد أن حَكَمَ مشاعره ولم يحكِّم عقله ولم يستشر أحداً ولم يحفل أيضاً بوصية والده، فباع الأرض للغريب حتى تمكَّن من أراضيهم كلِّها وأمسوا تحت نفوذه! قال الوزير: يا مولاي إن مشاعره تحكمت فيه عندما مرَّ بوضع لا يُحسد عليه، ولكن بعد أن رحل عن مدينته واستقلَّ بأرضه وأهله تعلَّم كثيراً وهذَّبه المصاعب والغربة التي مرَّ بها حتى استقرَّ، وليس أدلَّ على ذلك من إرساله الرسالة إلى القاضي بعد الأخذ بالحِطة والحذر.

قال الملك: دع عنك هذا وأكمل القصة لعلِّي أُغيِّر رأيي فيه، فماذا حصل بعد خروجه من دار القضاء؟

قال الوزير: خرج الأخ الأصغر خائفاً يترقَّب، ولكنَّ دهاء الفطري والظروف الصعبة التي مرَّ بها جعلاه يتماسك وأرجعاه إلى دار القضاء ثانية، فوقف في مكان قريبٍ حيث يرى القاضي الجديد والغريب وهما لا يشعران به، فاسترق السمع وفوجئ بما سمع منهما، ثم خرج مسرعاً وهو يقول ويكرر: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنشد:

بغير سلاح كيف أضربُ في العدا  
وكيف أردُّ الظلمَ عنِّي والردى

وكيف أسلّي النفس وهي حزينَةٌ  
وهذي جيوشُ الحزنِ تغزو مجدداً  
يعلمني دهري بأن أتردداً  
وأن لا أخوضَ الحربَ إلا مُسدداً

واتجه مباشرة شطر منزل أخيه الأوسط، فلم يكن يريد أن يعلم أخوه الأكبر بوصوله ولا أن يلقاه حتى يحضر أخوه الأوسط ويعرف منه الأخبار، وهو يمشي في إحدى الطرق رأى صياداً ماهراً من أصدقاء صباه وهو يقف قرب أكمةٍ (مرتفع جبلي صغير)، فقال له بعد السلام والتحية: ماذا تصيد هنا وليس هذا المكان مكان صيد؟ فقال الصائد: اقتصصت أثر أفعى هنا وخشيت أن تلدغ أحداً من المارة أو الأطفال الصغار، وقد عاهدت الله أن لا أترك أفعى قريبة من الناس إلا أبعدها عنهم.

قال الأخ الأصغر: وأين هي؟ قال الصائد: هذه هي فأهوى عليها بعصاه بسرعةٍ وثبت رأسها ثم أمسكها منه ووضعها في وعاءٍ خاصٍ بها، فقال له: ما أسرع إمساكها بها، والله إنك ماهرٌ كما عهدتك. قال الصائد: لا تمسك



الأفاعي إلا بسرعةٍ ومن رأسها فإن أمسكتها من مكانٍ آخر هلكت، ثم انصرف ليطلقها في الجبال البعيدة عن الناس .

قال الوزير: تابع الأخ الأصغر سيره إلى بيت أخيه الأوسط، وكلمات صائد الأفاعي تدور في عقله وهو يقول: الأفعى لا تُمسك إلا من رأسها بعد تثبيتها بالعصا وإلا لدغتك، والله إنها لحكمة تعلّمتها اليوم ويجب أن يعمل بها كل ملكٍ ذي عزمٍ ورجلٍ صاحب حزم .

في ذلك الوقت عاد الأخ الأوسط إلى بيته بعد أن زار أخاه الأكبر وأخبره بما جرى واتفق معه على اللقاء في المساء، فدخل البيت وسلّم على من فيه ونادى زوجته الأديبة العاقلة فلم يجدها، ولكنّه وجد بيته في أحسن حالٍ وكأنّه لم يفارقه، فكلُّ المؤونة التي تركها باقية لم تتغير ممّا جعله يدخل في حيرةٍ من أمره، فخرج مسرعاً يبحث عنها حول بيته فوجدها قادمةً من جهة السوق هي وخادمةٌ لها تحمل بعض المتاع، فقال لها: ويحك لقد كدت أمرض خوفاً عليك! قالت: أهلاً ومرحباً بالزوج الأصيل الكريم، وأنت عليه بأحسن الثناء وذكرت شوقها الشديد إليه بعد رحيله عنها، وقامت بواجبه حتى أنسته خوفه وتعب الغربة

وأمر الغريب، فارتاحت نفسه وهدأت وأخذ يقصُّ عليها أخباره..



قال الملك الناصر لوزيره: كم من حكمة يمرُّ عليها الناس ولا يستفيدون منها، وكم من عبرة يشاهدونها بأعينهم بل تقع أمامهم، ولكنهم لا يعتبرون بها ولا يتعظون كأنَّ قلوبهم عليها أقفال أضيعت مفاتيحها أو صفدت بأغلالٍ من البلادة لا يمكن كسرها، فهل هي الغفلة التي تمنعهم من التدبُّر أم الكبر أخذٌ بحُجَزهم (معقد الإزار) عن فهم هذه الحكم التي تُهدى إليهم ويردُّها أكثرهم إلى من أعطي حجاً (عقلاً) يعينه أو كان موفقاً من الله؟، قال الوزير: متَّعنا الله ببقائك يا مولاي إنَّ الناس تتفاوت منازلهم الفكرية وتختلف حسب التربية وعدد سنوات تحصيل العلم وتقادم الخبرة في الحياة، قال الملك: كيف ذلك؟

قال الوزير: إنَّ الصغير الذي ينشأ بين أبوين متعلمين أو أحدهما متعلِّم ولهما خبرةٌ في الحياة ستكون نشأته مختلفةً عن صغيرٍ آخر في مثل سنِّه ونشأ بين أبوين جاهلين، فإذا درس هذا الصغير وزاد في تعليمه كان ذلك أدعى أن تزيد

منزلته الفكرية فتكون الحكمة ضالته التي يبحث عنها،  
فيأخذها أين وجدها وسيكون الصغير الأول أكثر تحصيلاً  
للعلم من الصغير الآخر بسبب اختلاف التربية ولو كانت  
سنوات تحصيلهما متساوية، ثم بعد ذلك كلما أخذنا  
مسؤوليةً وأتقنا عملاً وشاركنا الناس في معترك الحياة زادت  
خبرتهما وكانت استفادتهما من كل ما يحدث حولهما على  
قدر الخبرة التي وصلنا إليها، قال الملك: أحسنت وهذا  
لعله سر استفادة الأخ الأصغر من حكمة صديقه صائد  
الأفاعي، فأخبرني ماذا جرى بعد ذلك؟

قال الوزير: عندما هدأت نفس الأخ الأوسط وبدأ يقصّ  
من أخباره على زوجته العاقلة الأدبية وذكر لها كيف استقبله  
أخوه الصغير وأثنى على حسن أخلاقه معه وهو في شدة  
غضبه منه، وأخبرها عن المدينة المدمّرة التي مرّوا بها وقد  
لعبت بها الأفكار والأهواء بسبب الغرباء المتربصين حتى  
خربت ثم قال: هل تذكرين حلّك للغز العامل؟ قالت: نعم  
أذكره، قال: جوابك كان صائباً وقد أنشدني أخي القصيدة  
كاملة، قالت: إنّها من شعر الحكمة وكلّ من يهتمُّ بالأدب  
والحكمة ستكون من جملة محفوظاته، وأنت تعلم ولع  
أخيك الصغير بالشعر، فقال لها وقد تذكّر الحيرة التي وقع

فيها أول دخوله بيته: أخبريني يا زوجتي عن سرّ بقاء  
المؤونة التي تركتها لك إبان سفري كاملة ولم تنقص؟  
وأيضاً ماذا كنت تفعلين في السوق ولم أعهدك من محبّات  
الأسواق؟

قالت الزوجة الأدبية العاقلة: عندما رحلت لم تترك لنا  
حاجة إلا وفرتها لنا، ولأنك لم تسافر قبل عني، تذكّرتُ  
درساً من الدروس التي استفدتها من أمّي وجعلتها منهجاً لي  
في حياتي، فقد سافر مرّةً والدي وهو كثير الأسفار يبحث  
عن رزقه، وترك لنا مثل ما تركت ولكنّه تأخر في سفره كثيراً  
حتى نفذت الميرة (المؤونة)، ولولا الله ثم موقف جارنا  
الكريم لجعنا وأصبحنا عائلةً على الناس، فكانت بعد ذلك  
إذا سافر والدي تفعل مثل ما فعلتُ معك؟ قال الأخ  
الأوسط: وماذا فعلتِ؟ قالت: اتفقتُ مع صاحب محلّ في  
السوق أن يبيع ثلثي المؤونة التي جلبتها وأبقيتُ الثلث لنا،  
ثم اشترت بربحها وبعثتها مرّاتٍ حتى فتحت متجراً خاصاً  
وجعلتُ عليه أحد عمّال أرضنا الأذكى، وبهذا أعدت كل  
المؤونة إلى مكانها وزدتُ بها محلاً ناجحاً في السوق.

قال الأخ الأوسط وهو في غاية التعجّب: فعلتِ كلّ هذا  
في هذه المدة! أي امرأةٌ مُدبّرةٌ أنتِ، فمن هو صاحب

المحلّ؟ قالت: أتذكر ابن جارنا الفقير الذي وقفت إلى جانبه وساعدته حتى تعلّم التجارة وأصبح له محلٌّ مشهور في السوق لصدقه وأمانته؟ قال لها: نعم إنّه شابٌّ فطِنٌ وأحدٌ من السيف في عمله، قالت: هو ذاك الذي أعانني على تجارتي الصغيرة، وتوقفت الزوجة قليلاً عن الكلام وزوجها ينظر إليها والغرابة تملو وجهه ثم قطعت الصمت وقالت: بل فعلتُ أكثر من ذلك.

قال الملك الناصر لوزيره: للزوجة في حياة الرجل شأنٌ عظيمٌ، لا يقلُّ عن شأن الرجل في حياة زوجته، من حيث راحة نفسه، وقوة شخصيته، وتدبير منزله، وتربية أطفاله، فلولاها لما نعم باستقرار، ولا شعر بمتعة الحياة، ولا استطاع أن يصل إلى سموّه الفكري والروحي، هذا إن كانت زوجته عاقلة ودوداً وغبية وغراماً، فإن كانت غير ذلك، فإنّها ستكون وبالاً عليه، ومنغصّةً ومعكّرةً له صفو حياته، وإنّما هنّ توفيقات إلهية، والأمر يصحُّ بعكسه كذلك، فكم من عاقلة أديبة بليت بعاقٌ بليد فظُّ القلب، وكم من زوج ندبٍ (شهم)، غُبن بزوجة كشجرة القتاد، كلها أشواك، لا يهنأ له بال، ولا يستقرُّ في ليل ولا نهار، ثم قال، ما أجمل ما قال الشاعر يصف زوجته:

يا خليلي إذا غُبنْتَ بزوجِ  
فأنا هانئٌ وعيشي رغيدُ  
زوجتي تتركُ الظلامَ ضياءَ  
وتداوي إذا جرحني تزيدُ  
ما رأى القلبُ مثلها في بلادِ  
فهو منها إذا تغيبُ عميدُ

قال الوزير: هي والله مثل زوجة الأخ الأوسط، الذي عجب من تصرفها في أول غياب طويل عنها، وهو يثق بعقلها وحكمتها، فقد حلت لغز العامل، وأشارت إليه بالذهاب إلى أخيه الصغير، وأعطته رسالة إليه، إن أبي أخوه قَبول اعتذاره، ثم في فترة غيابه، فتحت محلاً للبيع، فلم تنقص مؤونتها، فقال الملك الحكيم: هي من أعني يا وزير المخلص، ولكن ماذا فعلت أكثر مما فعلت؟.

قال الوزير: لقد كانت هذه الزوجة من نعم الله عليه، وها هي تحدث زوجها وتخبره بما صنعت، فقالت: عندما بدأت في رحلتك إلى مدينة أخيك، ذهبتُ في اليوم التالي إلى أخيك الأكبر، وقلت له: إن أخاك سافر في عمل له،

وهو يسلم عليك، ويطلب منك متابعة عمال أرضه حتى  
 يعود إلى وطنه؟ قال الأخ الأكبر: يا زوجة أخي، لا حاجة  
 لك أن توصيني، فأرض أخي كأرضي، ولا تخافي، فمن  
 لم يرع حق أخيه في غيبته لا خير فيه، فوقى بما قال، وإن  
 كنت أكره غفلته وكبره، ولكنّه لم يفرط في وعده، وبعد  
 يومين أصابته حمى ومرض مرضاً شديداً، حتى لم يستطع  
 إلا الخروج قليلاً للاطلاع على أرضه، فذهبت إليه وقلتُ  
 له: بورك فيك، فقد وفيت بوعدك، ولكّني أحلك منه حتى  
 تعود عافيتك. قال الأخ الأوسط: وماذا فعلت في مرضه؟  
 قالت: تابعت الأرض كأنك فيها، وبدأتُ بمتابعة شؤونها،  
 وقست نسبة المياه التي تصلنا من أرض الغريب، فوجدتها  
 أقلّ بكثير من النسبة المتفق عليها، فعلمت أنه يدبّر أمراً  
 يجعلنا نبيع أرضنا له بسبب الضرر، وأحسست بالخطر،  
 فذهبت إلى عالم يعرف استخراج المياه قدم توأماً من مدينة  
 أخرى تعجُّ بالعلماء، لعلّي أجد عنده حلاً لهذه المعضلة،  
 فجاء ودرس الأرض، وبحث عن مصدر جديد للماء  
 ينقذنا، وبعد مضيّ أسبوع وجد الماء بوفرة، فقال الأخ  
 الأوسط وهو يصرخ: بشرك الله بالجنّة، بشرك الله بالجنّة،  
 ونعم الزوجة أنتِ، فقالت له: اللهم آمين، وأكون معك في

أعلى عليين، ولكن اتند قليلاً أخبرك، فقد وجد هذا العالم الماء في جهة أرض جارنا، والماء أكثر من جانبه، وقد اتفقت معه أن ندفع تكاليف استخراج الماء وشتق طُرُقَه وتناقسمه بيننا، وهذه ورقة العقد الذي عقدته معه، ولا يعلم به أحد غيرنا، والعالم الذي جاء بالبشرى.



قال الملك الناصر لوزيره : الثقة بأهل الثقة والحكمة وأخذ الرأي منهم وتكليفهم الأعمال من حسن فطنة الرجال والنساء على حدّ سواءٍ وهو أيضاً دليلٌ على قوّة ذكائهم وعلمهم بأنّ الرأي إن أخذ من ثقةٍ غير حكيمٍ أو حكيمٍ غير ثقةٍ فإنّه سيؤدي إلى أخطاءٍ محقّقةٍ ومهالكٍ محدقةٍ، أما رأي السفية فهو الطامة الكبرى خصوصاً عندما تبلغ الأمور حدّها من الخطورة فلا يصحّ في العقول إلا الأخذ بمشورة من كان ثقةً حكيماً، ولا يُكلّف في المهّمات إلا القادر على حملها وإدارتها على أحسن وجهٍ، فكم من رأيٍ كان خطأً مقصوداً من شخصٍ غير ثقةٍ أو غير مقصود من ناقص الحكمة والتجربة أضاع ملكاً عظيماً، وكم من مُكلّفٍ متهورٍ أحمق أوقع بلاده ومخدومه في ما لا يُحمد عقباه، وهذه الزوجة



العاقلة الأديبة امرأة تساوي بعقلها رجالاً، وقد بهرني  
تصرّفها فكيف حال زوجها الأوسط لقد بهرته وجعلته  
يتعلّق بها أكثر من ذي قبل، قال الوزير: يا مولاي إنّ الملك  
المجرّب والرجل الذكيّ لا يضع ثقته إلا فيمن توافرت فيه  
الأهليّة خبرةً وأمانةً ومن استعجل واتكل على اختيار غيره أو  
لم يختبر عقل من يستشيره فلا بدّ أنّه سيقع في المحن  
وستزلزل المصائب أرض ملكه وأمر حياته، قال الملك:  
لهذا اخترتك من بين الناس فأنت فقط عمّالي بعلمك  
وحزت ثقتي بإخلاصك، والآن أخبرني ماذا حصل للإخوة  
تلك الليلة؟

قال الوزير: رجع الرجل من قصر الملك المنصور  
وسأل عن بيت الأخ الأوسط حتى اهتدى إليه وكان قد  
وصل قبله الأخ الأصغر الذي دخل البيت وسلّم بتحية  
الإسلام وهو يكرر: لا بدّ أن تمسك الأفعى من رأسها حتى  
لا تلدغك، فقال له أخوه الأوسط وهو ينظر إليه متعجباً:  
أي أفعى تتحدّث عنها، هل أصابك مكروه؟! قال: كلا  
ولكنّها حكمة تعلّمتها اليوم من صديقي صائد الأفاعي ثم  
أنشد لنفسه:

## كم في الحياة من الأخبار والحكم وليس تنفع إلا صاحب الهمم

قال الأخ الأوسط: دع عنك الشعر فما هو ذا الرجل قد حضر ولعلّ لديه ما يخبرنا به، فلما دخل الرجل رحباً به وقاما بواجبه ثم جلسوا يتحدثون في انتظار وصول أخيهما الأكبر فقال الرجل: لقد أمر الملك المنصور وزيره أن يحضركم عنده بعد ثلاثة أيام وأن يكون الغريب معكم وذلك بعد أن قرأ رسالة الملك العادل، فقال الأخ الأصغر: هل أمر وزيره أن يدعونا؟ قال الرجل: نعم ولكّني شعرتُ بريئةً منه وإنّ المرء ليعرف من نظرته، فقال الأخ الأوسط: هذا الوزير موضع ثقة ملكنا وإياكم أن تشككوا فيه، قال الأخ الأصغر: بعد كل الأذى والمحن التي مررنا بها يجب أن نحذر فإني وجدت الغريب مع القاضي الجديد يضحكان وأزيدكما من الأخبار خبراً محزناً، قالوا: وما هو، قال: القاضي الجديد والغريب والفارس الذي كان ينتظرنا قدموا من المدينة نفسها والحمد لله أنّ القاضي لم يقرأ رسالتي المخفية وإلا لنكل بنا حماية لصاحبه الغريب!

قال الرجل: يوشك أن يأتيكم رسول الوزير ليدعوكم

إلى مجلس الملك المنصور والوقت قصير فماذا أنتم  
صانعون؟ قال الأخ الأوسط: لنتنظر أخي الأكبر ونعرف  
رأيه ولدي بشرى سأخبركم بها عند حضوره، فما لبثوا إلا  
قليلاً حتى دخل عليهم أخوهم، فحدث موقفٌ لم يتوقعه  
أحدٌ حيث أسرع أخوه الأصغر إليه وقبّل رأس أخيه ويده  
فبكى هو وكل من حضر تأثراً بما رأوه ثم قال الأخ الأكبر:  
يا أخي اغفر لي ما بدر منّي وإني كنت من الظالمين، قال  
أخوه: بل أنت اغفر لي على تمكيني الغريب من الأرض  
ووالله إني لم أفكر في العواقب وبعته أرضي على حسن نيّة  
وهرباً منك وقد حكمت مشاعري وليس عقلي.

قال الوزير: في كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان  
يحتاج إلى رفقةٍ ومناصرين له ولا يستغني عنهم طوال حياته  
فالبداية تكون مع الوالدين ثم الأهل والإخوان وأبناء العم ثم  
الأصدقاء وهكذا مع رفقاء العمل والمجتمعين للقيام بعمل  
ما وكلّ منهم يشايخ الآخر ويناصره، وهي فطرةٌ في الناس  
لا يستطيعون العيش من دونها ولكنهم يختلفون باختلاف  
أسلوب اختيار الرفقة، فمنهم من يوفق بالصالحين الحكماء  
ومنهم من يُبتلى بالفاسدين الحمقى وكلٌّ يرزق حسب نيته  
وحسن فهمه، والذي يعجبني من هذا كله أن يزيد العاقل

من رفقاء الخير وإذا فارقهم فإنه يفارقهم إلى رفقة أحسن منها أو مثلها، وإنّ من ضياع الأعمار أن ينتقل إلى رفقة أدنى عن التي كان معها قبلاً، وهذا ما حصل للإخوة الثلاثة مع الرجل وزوجة الأخ الأوسط فقد صاروا يداً واحدة لإرجاع حقهم المسلوب.

قال الملك الحكيم: تعلّم يا وزيرٍي بأنّي منذ جعلني والدي الملك المظفر -عليه رحمة الله- ولياً للعهد وأنا أجتهد في اختيار خاصّتي من أهل العلم والخبرة والأمانة وأجتهد في البحث عنهم وأرى الفأل الحسن في وجوههم لأنّهم سيكونون نعم الأعوان لي، وسوف أخبرك فيما بعد لماذا جعلتك وزيراً لي وفضّلتك على نخبة العمّال الذين حولي، قال الوزير: يكفيني هذا الشرف يا مولاي، قال الملك: كما يتشرّف الوزير والعمّال بملكهم يتشرف أيضاً الملك بمن يعمل عنده إذا أحسن الاختيار، ولكن دعك من هذا وأخبرني ماذا صنع الرجل والإخوة الثلاثة مع الغريب؟

قال الوزير: أخبر الأخ الأوسط أخويه والرجل بما صنعت زوجته العاقلة الأديبة واتفاقها مع جاراها لشقّ قنوات المياه من أرضه لأنّها متوافرة فيها بكثرة، فاقترح الرجل أن

يتم الحفر مباشرةً لأنّه قد يثير الغريب عليهم قاضي المدينة إذا شعر بأنّ مخطّطه سيفشل وسيقع في سوء تدبيره، فقال الأخ الأكبر: نعم الرأي ولنطلب من العالم أن يجهّز لنا الأمر بسرعةٍ حتى إذا فشلنا في إخراج الغريب من أرضنا يكون لدينا من الماء ما يكفي فلا يموت زرعنا إن انتقم ممّا ومنعنا من السقي، والماء الآن بيديه ولا بدّ أن يتبع الضعيف القويّ حتى تتغير موازين القوى، قال الأخ الأصغر: نعم الرأي أيها الرجل ويا أخي ولكن دعونا نفاءل بالخير والنصر ولنتنظر رسول الملك المنصور.

قال الرجل: لا تنتظروا ولا تؤجّلوا فقد علّمتني الحروب التي خضناها لتخليص مدينتنا من الخائنين والأعداء أن لا نترك للعدو فرصةً للتفكير ولنسبقه في كلّ مخططاته.

ومن تأخّر في وضع خطّطه دمّرتّه خطط أعدائه، قال الأخ الأكبر: وماذا تريدنا أن نفعل وليس لنا من الأمر شيء؟ قال الرجل: أنسيتم أمر العامل الذي في السجن، إذا لم نصل إليه ونخلّصه من قبل مجيء رسول الملك المنصور إلى الغريب فإنّه قد يُنخلّص منه فهو الشاهد الوحيد على مكره وإنّ الملك عقابه شديد إذا علم به، قال الأخ

الأوسط: إنّ هذا العامل لمسكين حقّاً باع سيّده الذي أحسن إليه من أجل الغريب والآن يواجه المصير المظلم بسبب خيانتة، فقال الرجل: فماذا ترون أيها الإخوة؟

قالت الزوجة العاقلة الأدبية التي كانت تستمع إلى حوارهم من وراء حجاب: اسمحوا لي بمشاركتكم الرأي فإنكم لن تستطيعوا تخليص العامل إلا بأمرين إمّا بأمر الملك المنصور وإما بأمر القاضي الجديد وهذا لن يساعدكم فهو يعين الغريب ابن مدينته، وليس هناك من طريقةٍ إلا الوصول إلى الملك وأنا لديّ الحل.

## القولُ الفصلُ

**قال** الملك الناصر لوزيره المخلص : الشورى ليست عيباً ولا منقصةً في حق المشاور، بل هي عزٌّ وفخرٌ لكلِّ من يتمسك بعراها ويعمل بها، فما قامت الممالك الكبرى التي سبقتنا إلا بها وما سقطت إلا بسبب تركها لها ولم تجعلها منهجاً، وهكذا حال الناس، فالعاقل اللبيب منهم من اتخذها وسيلةً له للوصول إلى آماله وإدراك أحلامه، وأعجب من ذلك أنّ الشورى أصل في هذه الشريعة السمحة، ولهذا فإنّي لا أقطع أمراً جامعاً يهّم مملكتي إلا بعد أن ينظر إليه أهل الرأي والعلم والخبرة، فإن صوبوه أخذته وأمرتُ به وإن رأوه خطأً فإنّي أهمله ولا أفكر فيه، وإنّي أفكر أن أجعل مجلس أهل الرأي والشورى ثابتاً باقياً في عهدي وكل من يأتي بعدي من الملوك، وكم أعجبني اجتماع الرجل والإخوة الثلاثة والزوجة العاقلة تستمع إليهم من وراء حجاب، تعينهم بفكرها الفذّ وهم



يتشاورون في أمرهم ويتخذون أفضل تدبير لمواجهة  
الغريب .

قال الوزير: والله يا مولاي منذ عرفتك وأنت لا تستأثر  
بالرأي دوننا، بل أمرك شورى وتحرص على الاستماع إلى  
الآراء فلا تأمر بشيء إلا وأنت تعرف أوله وآخره ومدخله  
ومخرجه، وهذا من توفيق الله لك ولشعبك، متّعنا الله  
ببقائك .

قال الملك الحكيم: يا وزيرى رأيت هؤلاء في أول  
القصة متفرقين وقد نزغ الشيطان بينهم، وانظر كيف أصبحوا  
متآزرين متعاونين على ما ينفعهم وإنّ النصر لا محالة  
حليفهم، فأخبرني ماذا جرى بعد ذلك؟

قال الوزير: بات الرجل والأخ الأصغر في بيت أخيه  
الأوسط واتفقوا على الاجتماع صباحاً، فلما أصبحوا بكرّ  
الأخ الأوسط وذهب إلى عالم المياه وطلب منه أن يبدأ  
بالحفر عن الماء في أرضه وأرض جاره ويشقّ مجاريه  
حسب الاتفاق، وقد أنشده شعراً لأخيه الصغير ليغني به  
العَمال وهم يحفرون فيسمعهم الغريب ويموت غيظاً وقد  
يتهور بعد ذلك، يقول:

يا سائلاً عنّا هـداك اللّهُ  
النورُ من أمجادنا أشباه  
حتى شعاع الشمسِ قد أخفاهُ  
نعينُ من يحتاجُ لا ننساهُ  
ونقطعُ الظلومَ من يماناهُ

وقد طلب منه أن يكرّروا الشطر الأخير حتى يدبّ الهلع في قلب الغريب، ثم عاد إلى بيته فوجد الرجل وأخويه ينتظرونه وتم توزيع المهمّات بينهم.

قال الملك: وماذا فعلت زوجة الأخ الأوسط؟ قال الوزير: لقد ذهبت إلى زوجة وليّ عهد الملك المنصور التي كانت صديقةً لها في صغرها، ولم تزرها منذ زواجها منه خشيةً أن تظنّ أنّها تريد منها مساعدةً وهم في خيرٍ عريضٍ من خير الأرض التي لا تشابهها أرض في المملكة ولكنّ الغريب أفسد فيها بمكره، فلمّا رأتها زوجة ولي العهد رحّبت بها وأكرمتها ثم قالت: إنّني عاتبةٌ عليك لأنك لم تقومي بزيارتي منذ يوم زواجي وهذا لا يجوز بين الأصدقاء والأهل، ولا يصحّ أن تهجر النساء العاقلات من أمثالك زوجات الملوك وأولياء العهود.

قالت الزوجة العاقلة الأدبية: الحق يقف إلى جانبك يا مولاتي والتقصير مني، وإني جئتك اليوم في أمرٍ خطيرٍ.

قالت: وما هو؟ فأخبرتها الزوجة العاقلة بما حصل، ثم انصرفت عنها بعد أن ضمنت أنّ العامل سيكون في مأمنٍ من شرّ الغريب والقاضي الجديد، إلا أنّها قالت لها بوجهٍ حزينٍ: يا صديقتي العاقلة إنّ الملك المنصور يقيم العدل على أقرب المقرّبين منه، ولهذا لا تأملي إلا في عدل الملك سواء كان الحق لكم أو عليكم.

بعد ساعات سمع الغريب العمّال وهم يغتّون بهذا الشعر فوقع في قلبه وأثر فيه، وشعر بالخوف فأرسل أحد عمّاله يتجسس عليهم ويعرف أخبارهم، فلما علم ما يصنعون هرع إلى سيّده وأخبره الخبر، فلعنه ولعن الإخوة وأدرك أنّ كلّ مكره سيفشل وقد يدخله السجن إن شهد عليه عامله، فما كان منه إلا أن أسرع إلى جهة دار القضاء والرجل كان يراقبه..

قال الملك الناصر لوزيره: الزمان يذهب عن الناس برهةً ويدور دورته الكاملة، ثم يعود إليهم بوجوهٍ متعددةٍ ولكنها ليست جديدةً عليهم، فهم يعرفونها ويدركون ما هو

الوجه الذي سيأتي به الزمان كلّ مرّة، ولكن أكثرهم لا يستعدّون له ولا يجهّزون أنفسهم وأهلهم وقومهم قبل مجيئه، بل لا يبالون بالنتائج الخطيرة التي ستترتب على إهمالهم، وإني لأعجب من قوم يرون الخطر ولا يزيدون من تحصيناتهم، ويشاهدون الممالك تسقط بين أعينهم ولا يقومون بأخذ العبرة منها وتقوية روابطهم بشعبهم، ولتعلم يا وزير المخلص بأنّ الطامعين من داخل المملكة ومن هم حول الملك أكثر ممّن هم من خارجها، والعدوّ الخفيّ أشدّ فتكاً وأكثر خطراً من الأعداء الظاهرين، ولهذا وجب على الملك ومن يعاونه أن يتوصّلوا إلى هؤلاء الأعداء المختفين ويقوموا بحصرهم وحصارهم حتى لا يغدروا بهم على حين غرّة، ومن غفل فلا يلومنّ إلا نفسه.

قال الوزير: وهذا ما حصل يا مولاي في المدينة المدمّرة التي أخبرتك عنها وغيرها من الممالك التي شهدنا زوالها أو أخبرنا بها من سبقنا من أجدادنا، وسأقصّ عليك - إذا أذنت لي - ما فعل جدك بالأغراب الأعداء، وكيف قضى عليهم قبل أن تقوى شوكتهم. قال الملك: بل أريدك الآن أن تكمل لي قصة الإخوة الثلاثة مع الغريب، فقد أوشك المؤذّن أن ينادي إلى صلاة المغرب.

قال الوزير: اتجه الغريب مسرعاً إلى دار القضاء بعد أن أصابه الخوف من الشعر الذي سمع العمال يكررونه بصوت عالٍ، وكان الرجل يمشي في إثره وهو لا يشعر به ولا يعرفه، ثم وهو في الطريق استوقفه رسول الملك وأخبره بأنّ الملك يأمره بأن يمثل بين يديه بعد يومين، فقال بصوتٍ فيه تردد وضعف: سمعاً وطاعةً لأمر ملكنا المنصور، ثم أكمل مسرعاً سيره إلى القاضي الجديد وهو أكثر خوفاً، فلما وصل قال صارخاً وفرائصه ترتعد: النجدة يا صديقي القاضي.

فقال القاضي: ما بك وهدي من روعك! قال الغريب: لقد سمعتهم يتوعدونني بقطع يميني وهم يحفرون عن الماء، وإنّ خططي كلّها ستفشل إن فعلوا، وقبل قليل دعاني رسول الملك المنصور إلى قصره، والله إنّها قاصمة لظهري أو أمر سوء يُدبّر لي! قال القاضي: هذا ما يخيفك؟! فلا تخف، أخبرني وزير الملك بموضوع الإخوة والأمر كلّه سيكون في مصلحتك ولن يصيبك مكروه.

قال الغريب بعد أن هدأت نفسه: والله إنّ هذا الوزير من الدهاة وانظر إلى تعليم أبيك له كيف أثمر فيه، فهو نابغة زمانه في الأعمال والأفكار واستطاع أن يملك قلب الملك

المنصور حتى جعله وزيره، وهو من أشار بتعيينك قاضياً  
بعد موت قاضي المدينة .

قال القاضي: إنَّ الوزير يطلعني على أسرار الملك  
وأفعل مثل ما يريد حتى أبقى في مناصبي ونكمل الخطة التي  
رسمتها معه . قال الغريب: والله إنَّك القاضي الألمي،  
فماذا تأمرني أن أفعل؟ قال القاضي: اذهب إلى حيث أمرك  
الملك . قال الغريب: لا تنس أمر العامل فهو الشاهد على  
كل ما صنعت . قال القاضي: لا تأبه له فهو في السجن وبين  
حرّاس لا يفارقونه .

بعد يومين اجتمع الإخوة الثلاثة والغريب في مجلس  
الملك المنصور، وأمرهم أن يكونوا في مكانٍ ليس فيه غير  
الملك وأعوانه لئلا يسمع منهم أقوالهم، وهم يعلمون أنّ  
الكذب عنده مهلكة ومن ثبت عليه الظلم قضى عليه .

فتكلم الأخ الأكبر أولاً وقال: يا مولاي لقد مكر بنا  
الغريب وأخذ أرض أخي الصغير وتحكّم في زرعنا ورفع  
سعر السقي حتى صرنا نبيع لندفع له ولا نستفيد شيئاً وقد  
ألحق بنا الضرر الشديد . قال الملك: ماذا تقول أيها  
الغريب؟ قال: لقد اشتريت الأرض بمالي وأصبح الماء

مائي، وقد دفعت للأخ الأصغر قيمةً أكثر من قيمة أرضه ليرضى. قال الملك للأخ الأصغر: أفعَل هذا الغريب؟ قال الأخ الأصغر: نعم يا مولاي، ولكن..



قال الملك الناصر لوزيره : عندما تضيع الأحلام يمكننا أن نحلم ونأمل بغيرها وهي كثيرةٌ ولا تنتهي ولا يمكن أن نملك إلا قليلاً جداً ونعيش فيها وهي ليست واقعاً بل أخيلة مجردة عن الحقيقة تمرُّ بنا كالهواجس ثم تذهب كأنها لم تكن ويأتي غيرها طوال ما بقينا في هذه الحياة، ولكن واقع المُلك مختلف فهو إن ذهب لن يعود إلا بمعجزة ربانية يندر حدوثها، وكذلك الأرض إن بيعت كيف تعود وقد صارت في مُلك آخريين ولهذا فإنَّ حرصنا عظيم على سلطانِ أجدادنا وحدود أراضينا التي ورثناها كابراً عن كابرٍ وأمرنا بالدفاع عنها والشهادة دونها وكذلك على المال والعرض والنفس فلا يجوز التفريط فيها.

قال الوزير: لقد كان في قصة صاحب الأرض وأبنائه الثلاثة عبرة لأهل الحجا (العقل)، فإنهم بسبب عدم أخذ الحذر دخل الغريب بينهم واستولى على أرض الأخ الصغير

وفرق شملهم وقد حكّموا العاطفة على الرأي والمشورة  
واستعجلوا في أحكامهم قبل التحقق منها، قال الملك  
الحكيم: من تبع أمر عاطفته سقط في أشواك محتته،  
فأخبرني يا وزيرى ماذا صنع الملك المنصور مع الغريب  
والإخوة؟

قال الوزير: قال الأخ الأصغر للملك: أنا بعت الغريب  
أرضي ونصيبي في تراث والدي بإرادتي ولكن ما إن تمكّن  
منها ومن ينابيع المياه فيها حتى أصبح يتحكّم في أرض  
أخويّ وكأنّه السيّد المطلق، ثم أدخل العامل المسكين في  
السجن وهو يحاول أن يخبرنا بأمره ويحدّثنا منه ولم نستطع  
الوصول إليه وقد زاد الأمر تعقيداً وظلماً أن يكون الغريب  
من مدينة القاضي الجديد نفسها ولن يحكم لنا حتى يلج  
الجمل في سمّ (ثقب) الخياط (الإبرة)، قال الملك  
المنصور: ويلك أفي مجلسي تشكك في قاضينا الذي  
يقضي بالعدل!!

قال الأخ الأصغر: اغفر لي يا مولاي وإني لم أرد أن  
أقول ما قلت، ولكّني سمعتُ الغريب يقول للقاضي الجديد  
بأنّ وزير مملكتنا درس العلم على يد والد القاضي وهم  
أصدقاء منذ الصغر ولهذا أحضره للقضاء بعد موت القاضي



الصالح، وهو يأخذ مشورته ورأيه في كل شيء، قال وزير الملك المنصور: كذبت أفتتري عليّ هذا أمام ملكنا المنصور، قال الرجل: أيها الملك المنصور لقد جئنا إليك نطلب العدل وردّ الحق إلى أهله وأذكرك يا مولاي برسالة الملك العادل.

قال الملك المنصور: لم أنس رسالة الملك العادل ولا وقوفه معي في أيام ازدهار مملكته، وإنّه لنعم السند والمعين أيها الرجل الشجاع، ولكتني أعجب من حالنا نحن الملوك وحال هذه الدنيا، كيف نقرب من يبغضنا ونبعد من يحبنا ونولّي من يسيء إلينا ونُقصي من يريد لنا الخير وهو من أشدّ الناس إخلاصاً لنا، وهذه حالةٌ عجيبةٌ تتكرر في كل زمن ومكانٍ وكأنّ الدنيا كُتبت هكذا، ثم صمت الملك برهةً وصمت كلُّ من كان حاضراً ثم قال: هي سنّة من سنن الحياة ولكتها ليست ثابتةً لا يمكن تغييرها بل يمكن أن نختار الصادقين المحسنين ونبعد أهل السوء والمكر قدر ما نستطيع، وأن نحكم بالعدل بين الناس ونزيد من أفضالنا أهل الفضل والإحسان.

قال الرجل: متّعنا الله ببقائك يا مولاي إنّما المُلْك اختبارٌ من الله وعلى الملوك أن يقوموا بين الناس بالعدل

وأن لا يغفلوا عن تحصين ممالكهم بالأكفاء المخلصين من الرجال وليبعدوا عنهم من همّه فائدته وملذاته، قال الملك المنصور: يا وزيرى لقد اخترتك من بين الأخيار وقدّمك على أعيان أسرتي، فأخبرني ولا تُخفِ عني شيئاً هل درست على يد والد القاضي الجديد؟

قال الملك الحكيم لوزيره وقد ظهر على وجهه علامات التعجب: كيف قام الملك المنصور باتخاذ هذا وزيراً له ولم يعرف ماضيه ولم يسأل عن نشأته وسيرته؟!، وكيف يسأله الآن أمام المتخاصمين عنده؟ ألم يعلم بأنّ سؤال الخاصة أمام العامة معيبٌ يؤدّي إلى تصغير سلطانه؟ قال الوزير: لقد كانت ثقة الملك المنصور كبيرةً بوزيره ولم يشكّ فيه لحظةً، وأما سؤاله له فهذا ما استدعاه له الموقف، فقد رُجّ باسم وزيره في القضية وأصبح طرفاً في القضية بل صار موضع شبهةٍ في الأمر كلّهُ وهو من عدل الملك وفهمه، قال الملك الحكيم: إذن أكمل قصتك لكي لا تتأخر عن صلاة المغرب وأريدك أن تحضر لي مؤرخ مملكتنا الراوية، والرياضي الفقيه، وشاعري الخنذيد إلى مجلس قصر والدي القديم بعد صلاة العشاء وأنا سأجلس قليلاً مع أبنائي وبناتي بعد العشاء ثم أذهب إلى مجلس سمري لأنّ الأبناء يطلبون

مَنِّي أَن أَجْلِسَ مَعَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ وَفِي هَذِهِ الْجُلُوسَةِ مَتْعَةٌ خَاصَّةٌ لِي .

قال الوزير: سمعاً وطاعة يا مولاي، لقد وقع وزير الملك المنصور في حيرةٍ من أمره وتردّد في جواب ملكه ولكنّه تدارك وقال: يا مولاي لقد سُغِفَت بالعلم أول صباي ويمّمت من أجله كلّ مكان وكان والد القاضي الجديد من أستاذتي الذين أخذت منهم العلم وعرفت نجله أيام الطلب، ولما توفي القاضي الصالح أشرت عليكم بتنصيب ابنه القاضي الجديد لمعرفتي بأمانته وحُلقه وإنّي لا أستشيره في أمرٍ إلا ما يخص القضاء فهو أعلم به مِنِّي، قال الملك المنصور: هكذا إذن، لقد كان من الأولى لك أن تخبرني بمعرفتك به من قبل ذلك ولكن لا بأس عليك، ثم التفت إلى المتخاصمين وقال: أين العامل؟ أحضروه أستمع إلى أقواله، فارتبك الغريب وبدأ الخوف يظهر عليه فقال: يا مولاي هذا العامل أراد قتلي فكيف تؤخذ شهادته؟

قال الملك المنصور: إنّه الحق وستقبله أيها الغريب، لك أم عليك، فلما أحضروا العامل وكان في حالةٍ يُرثى لها، ولم يستطع الوقوف عندما رأى سيده القديم الأخ الصغير فخرّ باكياً يضرب وجهه ورأسه، فقال الملك: قف

أيها العامل وأخبرني الحقيقة، فأخبره اتفاقه مع الغريب في تقليل ماء السقي حتى غضب الأخ الأكبر وضرب أخاه الأصغر ضرباً أقعده عن السير أياماً واستطاع الغريب أن يقنعه ببيع أرضه ثم أراد التخلص منه لأنّه الشاهد على خيانتة ومكره ففعل ما فعل، ثم قال العامل: إنّي أستحق العذاب الشديد على خيانتي لسيدي وولي نعمتي من أجل هذا الماكر الخبيث، قال الأخ الأصغر: أيها العامل بشهادتك هذه أشهد الله أنّي قد عفوت عنك والله خير الغافرين.

قال الملك المنصور: إنّ العدل يعلو ولا يُعلَى عليه، وقد حكمتُ بأن يُسجن العامل جزاءً لخيانتة الأمانة ولمحاولته التخلص من سيّده الغريب فإذا تاب وأناب وأحسن سيرته فإنّي سأعفو عنه قبل إكمال مدّة سجنه، أمّا أرض الغريب فهي له اشتراها بماله وهي ملكٌ له لا تؤخذ منه ولا يضيّق عليه، ولكن بسبب مكره وخبائثته فإنّي أرجع ملكيّة ينابيع المياه للأخوين الأكبر والأوسط على أن لا يمنعاه من سقي زرعه وأن لا ينتقما منه كما فعل بهما، وإذا أراد أن يبيع أرضه فإنّ الإخوة الثلاثة أحق بشرائها إلا إذا امتنعوا عنها، فُضي الأمر الذي تستفتونني فيه، هيّا انصرفوا

وإني أحذرك أيها الغريب من المكر ثانية في مملكتي وأنت مراقب من هذه اللحظة .

قال الملك الحكيم: يا وزيرى المخلص والله إن الملك المنصور قد أنصفهم وردّ الحقوق فماذا حصل بعد ذلك؟ قال الوزير: لم يستطع الغريب أن يبقى طويلاً تحت رحمة الاخوة الثلاثة الذين وجدوا الماء بوفرة في أرض أخيهم الأوسط وجاره، وقد أضاف الملك لهم حقوق الماء في أرض الغريب فأسرع ببيع الأخ الصغير الأرض بثمن أقل من سعرها، فعادت إلى أصحابها، أما الزوجة العاقلة فقد أنجبت للأخ الأوسط بنتاً تشبهها في جمالها وعقلها وأنا أحد أحفادها، قال الملك الحكيم وهو يبتسم: أنت !

قال: نعم يا مولاي والملك المنصور، كما تعلم، هو جدك لأمك، قال الملك الحكيم: بقي أن تخبرني ماذا كتبت الزوجة العاقلة للأخ الصغير حتى يرضى، قال: ذكّرته بمرضه الشديد وبقاء أخيه الأوسط معه شهراً لا يفارقه أبداً حتى شفي، وقد طلبت منه أن لا يقرأها لأنه قد يلقيها لكي لا يمتن على أخيه الصغير . وهكذا رجع الحق إلى أهله .

تمّ الجزء الأول



جمال بن حويرب

## أيادي سبأ

إذا أصبح الأدب يعتمد على الإيحاء وحث القراء على استخلاص المعاني بأنفسهم دون نبرة وعظية أو إرشادية، فإن الإبداع يدمج القارئ في العوالم والتجارب والحالات، ويتسلل إلى النفوس ليكيف مزاجها ورؤيتها بذكاء وفطنة. وإذا كان بعض الأدباء يرون أن القصص الخياليّ يحمل من المغزى أكثر ممّا ينبغي وأوضح ممّا يتجلى في الواقع المعاش فإن القصة التي تتدثر بالحكمة، وتتعلّى بالمواعظ وتصدح بها تتعري من الجمال الذي تؤدّ أن تتلفح به، النابع من هيكلها وتناغمها لا الموضوع على جسدها. لكن أيادي سبأ تخترق هذه القاعدة بجسارة وشعرية أتمنى أن ينعم بها القارئ المتذوق.

د. صلاح فضل

ISBN 978-614-432-501-8



786144

325018